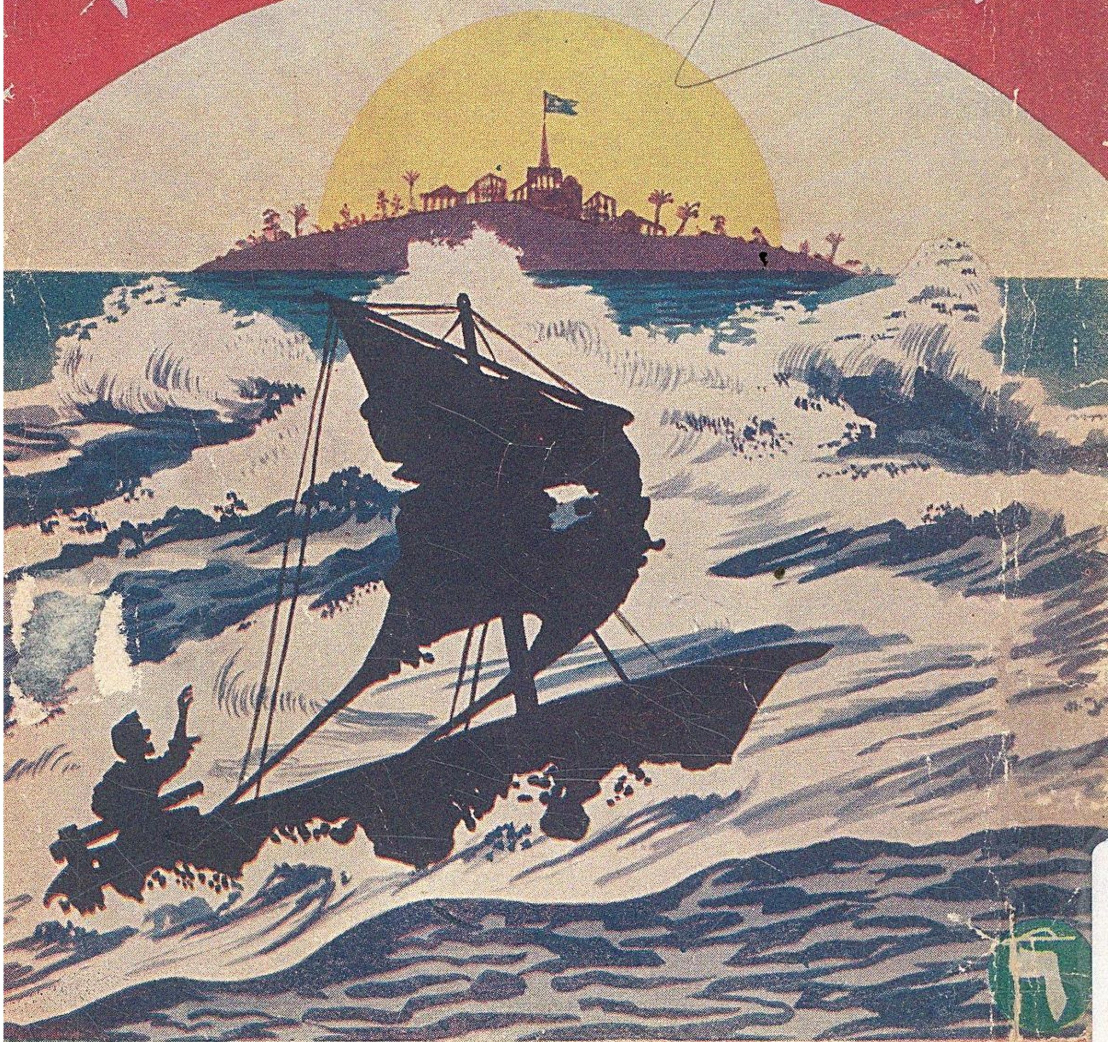
أرض الأحلام

للدكتور زكي نجيب محمود



٦

كتب للجميع

أرض الأحلام

للدكتور زكي نجيب محمود

٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

طبع بمطابع جريدة « المصرى ».

مقدمة

عندما يضيق الانسـان ذرعا بالظروف المحيطة به ، ثم يعجز عن تغييرها على النحو الذى يرتضيه ، فانه يسترسل فى احلامه ، ليظفر فى دنيا الخيال بما استحال عليه ان يظفر به فى عالم الواقع

وليس كل انسان قادرا على أن يضيق ذرعا بما يحيط به من أسباب الشقاء والبؤس ! تلك عجيبة تستوقف النظر فى طبيعة البشر ، فقد ترى الناس الوفا الوفا ، قد حرمتهم هذه الدنيا كل مقومات الحياة الاولية ، فلا غذاء ولا رداء ولا مأوى ، وهم مع ذلك لا يشعرون بما اصابهم من حرمان ، كأنما عميت ابصارهم فلا ترى ، وصمت آذانهم فلا تسمع ، وتبلدت جلودهم فلا تحس !

وهكذا يظل المعذبون على عذابهم ، فلا شكاة ولا انين ، حاسبين ان ما اصابتهم به الدنيا من الوان الهموم وغلظة العيش هو الوضع الطبيعى للامر ، فهكذا خلقت لهم الحياة ، وهكذا خلقوا لها ، فليس لهم – اذن – أن يضيقوا ذرعا بها

لكن الله لا يهمل عباده أبد الابدين ، فيقيض لهم حينا بعد حين نفرا منهم ، لا يجيئون على ما هم فيه من عمى وصمم وبلادة احساس .. يقيض لهم نفرا منهم تكون لهم الاعين التى ترى أسباب البؤس والاذان التى تسمع انين المتألمين ، والجلود التى تحس للمحات

العذاب ، فتكون لهم القدرة على التبرم بما حولهم والسخط على ما يحيط بهم ، بالعمل حينا وبالقول احيانا

وغالبا مايكون الادباء اصحاب الحس المرهف فى طليعة الثائرين لانهم عادة اول من يدرك النقص والفساد ، فانظر مثلا الى الثورة الفرنسية ، تجد طلائعها هم رجال من حملة الاقلام ، مثل روسو وفولتير ٠٠ لانه يكفيك ان تفتح اعين الناس وآذانهم ليروا ماحولهم ويسمعوا ، لتكون بعد ذلك على يقين من اصلاح فعلى يأتى بعد حين قصير او طويل

ولهؤلاء الادباء - اذا كانوا من الطراز الاول - طريقتهم فى تنبيه الناس الى اوجه النقص فى حياتهم فهم لا يقدمون ابحاثا علمية فى الاقتصاد والاجتماع وما اليهما ، بل هم يرسمون صورا من شانها ان تنبه الغافل وتثير الساكن

وهذا الكتاب الذى أقدمه للقراء اليوم يحمل نماذج فريدة من اسلوب الادباء فى الدعوة الى الاصلاح ، اذ اقدم فيه خلاصات لكتب هى من اروع ماعرفته آداب العالم فى هذا السبيل

فهذا ((مور)) فى كتابه «يوتوبيا» يرحل بك رحلة الى ارض خلقها خياله خلقا ، ليعرض عليك هناك شعبا عرف كيف يعيش سعيدا ، فلا حروب تفتك بابنائه ، ولا ملكية تشعل فى النفوس نيران الجشع ، ولا جمود يحول بينهم دون اصلاح انفسهم ، ولا استبداد عند الحاكمين ، ولا ارهاق للعمال ، ولا امتياز لطبقات الناس بعضهم على بعض ، ولا مرض يضعضع الابدان

وهذا ((صموئيل بتلر)) فى كتابه «ارون» يرحل بك رحلة اخرى الى ارض خيالية اخرى ، ليعرض عليك هناك شعبا آخر عرف أيضا كيف يعيش سعيدا صحيحا معافى ٠٠ الا ان «بتلر» فى كتابه هذا قد اصطنع اسلوب التهكم الساخر المر بنا وبمجتمعنا

الذى نعيش فيه ، الى درجة قد تخدع القارىء عن قصده الحقيقى فلا بد من العناية عند قراءته

وهذا ((وليم موريس)) فى كتابه ((ابناء الارض التى لا وجود لها)) يحدثك عن شعب سعيد ، ليضع أمامك - هو الاخر - نموذجا جديدا للحياة الاجتماعية كيف ينبغى ان ينتظم بناؤها حتى يعيش الناس فى بحبوحة ، ويبرأوا من هذا البلاء المحيط بهم فى المجتمع الراهن القائم ، ومما يسترعى الانتباه بصفة خاصة مهاجمته للملكية الفردية التى يطغى بها اصحابها على الضعفاء المعوزين

ثم هذا ((هـ٠ج٠ ولز)) فى كتابه ((يوتوبيا حديثة)) يبشر كذلك - كزملائه - بحياة اشتراكية لا تعرف الفوارق بين الافراد ولا بين الامم : انه يريد مدنية واحدة عالمية ، ولغة واحدة وحياة تستفيد بمخترعات العلم الحديث ، ويريد للناس حرية الحب ، وتعاون العلماء فى الجامعات واشتراكية الارض ، وان يكون لكل انسان حد أدنى من العيش

ولو احس القارىء بعد فراغه من قراءة هذا الكتاب بشىء من الضيق بما نحن فيه من عيش سقيم شقى بائس ، ثم احس مع ذلك برغبة فى التغيير والاصلاح على نحو اشتراكى يعرف للافراد اقدارهم ، ويترك لهم حرياتهم ، ويحطم الفواصل البغيضة بين الناس ٠٠ لو احس القارىء بشىء من هذا بعد فراغه من قراءة الكتاب ، تحقق لى الهدف الذى قصدت اليه

والله ولى التوفيق

زكى نجيب محمود



نبذة عن حياة توماس مور

ولد توماس مور فى لندن فى اليوم السابع من فبراير عام ١٤٧٨(١) من أسرة لم تمتز بجاهها العريض ، ولكنها ملأت الافواه والاسماع بحسن الاحدوثة وكريم الخلال

كان أبوه قاضيا ، واراد أن ياخذ ابنه بدراسة القانون فارسله الى جامعة اكسفورد ، حيث ابدى من علائم الذكاء واستقامة الخلق ما انطق الالسنة بالثناء عليه ، حتى قال أحد رعاته : « ان هذا الصبي سيتمخض عن رجل ممتاز » . وقد كانت لابيه خطة صارمة فى تنشئة ابنه على الجد ، اذ كان من رايه أن اشد ما يحفز النفس على الفضيلة هو منع وسائل الاغراء ، ولذا لم يكن يرسل لابنه من المال الا قدرا ضئيلا حتى روى عنه انه اثناء اقامته باكسفورد لم يكن يستطيع ان يصلح حذاءه دون أن يرجع الى مشورة ابيه . ويقول « مور » مشيرا الى ذلك واثره فى تربيته الخلقية : « من أجل هذا لم انغمس فى الملاذ العابثة واللهو الضار ولم اكن ادرى معنى الترف ولا أعلم كيف انفق المال فى أوجه السوء . وملخص حياتى المدرسية انى لم اكن احب وافكر الا فى دروسى »

تخرج « مور » فى تلك الجامعة ، فاشتغل محاميا ، فمحاضرا فى القانون ..

---

(١) — Utopia هذه الكلمة ماخوذة من مقاطع يونانية قديمة ، ومعناها « البلد الذى لا وجود له » ولكنها اكتسبت فى العصر الحديث معنى جديدا هو « المدينة المثلى » .

ولعل اقوى ما اثر فى مجرى حياته بعدئذشخصيتان بارزتان فى عصره شاءت له الصدفة لن يلتقى بهما فصاغا له حياته فى قالبها المعروف ،واقصد بهما « ارزم » و « كولت » وهما من اعلام الاصلاح الخالدين .. ولقد اعجب ارزم بمور اعجابا عظيما حتى قال عنه فيما قال :« متى أنجبت الطبيعة رجلا أرق واعز وامرح من توماس مور ؟ »

ولما بلغ « مور » السادسة والعشرين من عمره انتخب عضوا فى البرلمان الذى عقده هنرى السابع عام ١٥٠٤ ، ولكنه لم يلبث أن تعرض لسخط الملك وغضبه وذلك حين طالب هنرى بزيادة الضرائب ليجمع قدرا من المال ينفقه على زواج ابنته من ملك اسكتلنده ، فتصدى له « مور » دون الاعضاء جميعا ، وكان من اثر حملته أن اكتفى الملك لنفقات الزواج بثلاثه عشر الفا من الجنيهات بعد أن كان يطالب بثلاثين الفا . ولكن الملك اسرها له فى نفسه ، واخذ يتربص به الدوائر ، حتى اضطره ان يتنحى عن النيابة وماليها من الشئون العامه ، وما زال يتتبعه بنقمته ، فلم يجد « مور » بدا من الهرب ، فما ان اخذ يعد العدة لذلك حتى مات الملك هنرى سنة ١٥٠٩ .

تولى الملك هنرى الثامن فاخذ نجم « مور » فى الصعود ، فعين نائبا لعمدة لندن ، وهو منصب من اعظم مناصب الدوله اذ ذاك ، واستانف المحاماة وذاع اسمه فكثر ربحه على الرغم من كرهه للمال ... نعم ذاع اسمه بين التجار واصحاب الاعمال ذيوعا عظيما منذ عارض الملك فى زيادة الضريبة ، حتى الح هؤلاء على هنرى الثامن أن يبعث به سفيرا الى هولنده ليفض ما كان قائما بين الدولتين من خلاف ، ولقد نشأت فكرة اليوتوبيا فى ذهنه وهو فى تلك السفارة بين البلدين

وتبين هنرى الثامن فى « توماس مور » القدرة والنبوغ ، فسعى سعيا حثيثا الى ضمه الى حاشيته ليفيد من حكمته ، غير ان « مور » كان يقابل ذلك بالرفض ، وسترى فى كتابه انه عبر على لسان بطل القصة « هتلوداى » عن مقته الشديد لتلك المناصب ـ ولكن هنرى مضى فى الحاحه حتى ظفر به عام ١٥١٨ عضوا فى مجلس البلاط ، بل اقرب الاعضاء الى قلب الملك ، بحيث اخذ يلازمه ملازمة لاتكاد تنفصل ، فاذا جد الجد كان رأى مور نافذا حاسما واذا ضاق صدر الملك كان حديث مور هواقرب وسائل السلوى وانجعها وما زال كذلك يعلو فى مناصب القصر حتى عينه الملك كبيرا لامنائه عام ١٥٢٩ بدل « ولزى » الذى هوى من ذروته لفشله فى التوفيق بين البابا وهنرى الثامن ، حين اراد هذا ان يستصدر امرا بابويا بالغاء زواجه من كاترين ـ غير ان « مور » لم يكد يتولى منصبه ذاك



والقى مور فى برج لندن حيث حوكم ، وادين وازهق روحه

حتى صارح الملك بانه لا يوافق على الغا ذلك الزواج ولا يسعى اليه ، فنحاه هنرى ومضى فى سبيله دون ان يلجا اليه

اشتد النزاع بين البابا وهنرى الثامن فلم يات عام ١٥٣١ حتى اعلن هنرى انه « حامى الكنيسة الانجليزية ورجالها وانه رئيسها الاعلى » . فلم يسع « مور » الا ان يستقيل من منصبه . ونفذ هنرى مشيئته وتزوج من « آن بولين » فقرر البابا حرمانه من الكنيسة ولم يكن بعد ذلك بد من فصم العلاقة بين انجلترا وروما . ولما جاء عام ١٥٣٤ حتى اعد هنرى قانونا لوراثة العرش يحصر ولاية العهد فى ابنائه من زوجته الجديدة « آن بولين » وطلب الى كبار رجال الدولة ان يحلفوا يمين الاخلاص لذلك القانون . ولكنها يمين صيغت عبارتها بحيث تتضمن الاعتراف بشرعية زواج الملك من « آن » وعدم شرعية زواجه من كاترين ». كما تتضمن انكار كل يمين حلفت قبل ذلك « لسلطة اجنبية او امير اجنبى او دولة اجنبية » ومعنى ذلك الحنث فى الايمان السابقة التى حلفها رجال الدولة على ولائهم للبابا رئيسا للكنيسة .. وكان لابد لتوماس مور أن يحلف يمين الاخلاص التى يريدها هنرى ، فرفض مور رفضا يزداد رسوخا وثباتا كلما ازداد هنرى الحاحا ورغبة فالقى « مور » فى « برج لندن » حيث حوكم وادين وازهقت روحه فى اليوم السادس من يوليو عام ١٥٣٥

اما كتابه ((اليوتوبيا)) — اوالمدينةالتىلا وجود لها — فقد كتبه ليصلح الاخطاء الاجتماعية فى انجلترا فى عصره ، ولقد لقى هذا الكتاب كثيرا من النقد الشديد وكاد النقاد يجمعون على انه ضيق الخيال مالوف الفكر ولا يقدم للقارىء شيئا جديدا ذا غناء ، فضلا عن انـه لا يواجه الحقيقة الواقعة فيما يبسط من آراء .. ولعلنا نكون اشد انصافا للكاتب حين نذكر انه قصد الى اصلاح الحياة الانجليزية وتقويمها قبل ان يقصد الى تصوير دولة مثلى كما فعل افلاطون فى جمهوريته ، ومن هنا جاء البناء ناقصا فاتهمه الناقدون مثل ((مشليه)) و ((ولز)) بالقصور فى الخيال .

واهم الاغراض التى ارادها مور بكتابه هذا هى :

١ — ان يشير فى تهكم الى ما يسود انجلترا خاصة وأوربا عامة من مساوىء اجتماعية .

٢ — ان يرسم صورة خيالية لدولة مثلى .

٣ — ان يوضح فساد الاخلاق بأن يقارن بين الاخلاق السائدة هنا والاخلاق القائمة فى مدينة أحلامه .

ولقد كان لهذا الكتاب ذيوع عظيم بين الناس لمنزلة كاتبه ، ولان اشد نزعات ذلك العصر هو الكشف الجغرافي للقارة الجديدة ، فاشتد ميل الناس الى مطالعة ما يكتب عن البلاد البعيدة العجيبة التى كشفها الكاشفون ، سواء كانت تلك الارض المكشوفة فى مصور الواقع او من تصوير الخيال . وهل كتاب « يوتوبيا » الا رحلة خيالية الى جزيرة انشاها خيال الكاتب .

على ان الكتاب لا يخلو من لذة للقارىء الحديث فليه حلول لمسائل هامة مما يشغل العقول فى هذا العصر ، منها

١ — مشكلة اوقات الفراغ ، فانه كلما تقدم الزمن بالصناعة واصابت من الرقى قسطا ، اتسع فراغ العمال وكان امره جديرا بالتفكير . ومن المذاهب الاجتماعية السائدة فى عصرنا هذا راى ينادى بمبدأ المساواة بين الناس جميعا فى اوقات الفراغ ، وذلك ما سبق اليه توماس مور اذ ستراه فى هذا الكتاب ينادى بوجوب تحديد ساعات العمل فلا تزيد عن ست ساعات

٢ — اساس السياسة القومية والعلاقة الدولية ، فان « مور » يلح الحاحا شديدا فى ان تهتدى الامة فى سياستها الداخلية وفى علاقتها مع سائر الامم باحكام العقل ولا تميل فى ذلك مع الهوى ، فهذا وحده كفيل بالا تتعرض الانسانية لما تتعرض له اليوم من الكوارث والالام .

٣ — ان اشد ما يرغب فيه « مور » هو محو الذهب والفضة من الحياة الاقتصادية ، ولعل فى ذلك تشابها قويا مع ما يسرى بيننا اليوم من بعض الاراء الاقتصادية التى تنادى بعدم الاخذ بالذهب كقاعدة للنقد .

يوتوبيا

تخيل توماس مور انه حين ارسله هنرى الثامن سفيرا ايفاوضو فى هولندا فى بعض الشئون السياسية بين الدولتين ، قابل هنالك رجلا اسمه هتلوداى ، عرف منه انه سافر فى رحلة طويلة الى جزيرة مجهولة يطلق عليها « يوتوبيا » فاعجب بما فيها من نظم اجتماعية وخلقية وسياسية ، وهو يريد ان يذيع فى الناس قصة هتلوداى كما سمعها منه ، لعلها تهديهم فى اصلاح بلادهم .

ويستهل « مور » الكتاب برسالة يزعم انها لصديق يعرف

هتلوداى صاحب القصة ، فيرجوه ان يقابل هـذا الرجل ويعرض عليه مسودة الكتاب قبل نشره خشية ان تكون فيه شيء من الخطأ ، لانه حريص على ان يخرج الناس صحيحا صادقا .. وهو يقرر لصديقه فى هذه الرسالة انه حتى بعد تحقيق الكتاب واثبات صحته ، يتردد فى نشره لانه يعلم ان الكثرة الغالبة من الناس فاسدة العقل مختلة التفكير لانها جاهلة لم تصب قسطا موفورا من العلم ، بل ان الاقلية المتعلمة نفسها تحتقر الحق وتزدريه . فماذا عساه ان يفيد بنشر الكتاب وهو يكاد يثق انه لن يصادف عند القوم الا ازورارا ؟ وما اهون ان تتناوله السنة النقد الهادمة ، فيقضى عليه ناقد بكلمة واحدة يرسلها بين رنين الكئوس ، دون ان يكلف نفسه عناء القراءة فضلا عن البحث والتفكير .

ثم يبدأ الكاتب بعد ذلك فى رواية القصة ، وهو يقسمها قسمين : الكتاب الاول والكتاب الثانى .

الكتاب الأول

بعث بى الملك هنرى الثامن ـ ملك انجلترا المنتصر الظافر ـ لأفض ما بينه وبين « شارل ملك كاستيل » من أسباب الخصومة والنزاع ، وكان برفقتى « تنستول » وهو اشهر من ان اعرف القارىء به ، ولو فعلت كنت كمن يبين موضع الشمس بشمعة كما يقول المثل السائر . . فقابلنا فى « بروج » رسل « الملك شارل » وكلهم ذكى ممتاز ، فان اختصصت احدهم بمدح فهو « تمسيس » الذى امتلأت اعجابا ببلاغته ودرايته بالقانون وما أوتى من المواهب النادرة والعلم الغزير

..واجتمعنا بهؤلاء السفراء مرتين لم تسفرا عن وفاق ، فسافروا ليعرضوا الامر على اميرهم شارل فى بروكسل ، وسافرت الى انتورب

وبينا انا مقيم فى انتورب اذزارنى « بطرس جيلز » وهو من اهالى انتورب ، وقد حسنت سمعته بين قومه ، فامتدحته الالسنة لعلمه وفضله ، وعرف فيه الناس وفاء نادر الاصدقائه ، فضلا عن مرحه الجذاب وحديثه الحلو ، فكان بطرس لى فى غربتى الموحشة احسن السلوى ، وخففت صحبته من لوعتى المتحرقة نحو بلادى وزوجى وابنائى الذين كنت قد فارقتهم منذ شهور اربعة

اديت الصلاة ذات يوم فى كنيسة جميلة البناء ، وسرت فى طريقى عائدا الى الدار فابصرت بطرس يتحدث مع رجل تقدمت به السن ، بشرته ضاربة الى السمرة من لفحة الشمس وله لحية طويلة بيضاء ، وكان يتلفع بثوب فوق كتفيه ، وماكدت اراه حتى رجحت ان يكون بحارا . فلما رآنى بطرس ، اقبل نحوى مسرعا وحيانى ، فكدت اطلب اليه ان يعود الى محدثه لولا انه اسرع فانبانى بانه كان يعتزم ان يصطحب ذلك الرجل الى دارى ، فاجبته انهما يحلان اهلا وسهلا لما يكنه صدرى من حب لبطرس ، فقال لى : انك لن تجد بين الناس من يتحدث اليك حديثا اطلى واشهى من حديث هذا الرجل ، فهو يروى لك قصصا ممتعة عن شعوب مجهولة زارها بنفسه وبلاد عجيبة رآها بعينيه ، وانا اعلم انك راغب فى مثل هذه الانباء .

اما ذلك الرجل فهو « روفائيل هيتلوداى » ، كان عالما باللغة اللاتينية ، ضليعا فى اليونانية ، وانفق ايامه فى دراسة الفلسفة ،

وقد دفعه حب الرحلة الى اصطحاب «أمريجو فسبوتش»(١) فى رحلاته الثلاث الاخيرة ، ولكنه لم يعد مع امريجو فى ثالثتها ، بل آثر البقاء فى ارض « جيلايك » مع اربعة وعشرين رجلا سواه تركهم أمريجو هنالك .. آثر روفائيل البقاء فى تلك البلاد ليضرب فى انحائها ويجوس خلالها لانه يحب اخطار السفر اكثر مما يحب السلامة والعافية ، ولم يكن يعبأ ان يدركه الموت فى احدى رحلاته قائلا : ان من لا قبر له فالسماء غطاؤه ، والطريق الى الجنة بعدها واحد اينما صعدت اليها ... فلما غادره امريجو ، اخذ روفائيل ينتقل من بلد الى بلد مع خمسة من اهل « جيلايك » ثم انتهى آخر امره الى بلد رأى به مركبا راسيا من مراكب وطنه ، فعاد على ظهرها

انبانى بطرس بهذا كله عن روفائيل ، فشكرته على أن أتاح لى فرصة التحدث الى هذا الرجل ، والتفت الى روفائيل وحييته فرد التحية ، واخذنا فى حديث اولى كهذا الذى يبدأ به الناس عادة صداقة جديدة ، ودعوته الى دارى وهنالك جلست واياه على مصطبة فى حديقتى غطاها الحشيش الاخضر ، ثم بدأنا الحديث .

حدثنا انه حين تخلف فى ارض « جيلايك » بعد ان غادره « امريجو فسبوتش » لم يجد عسرا فى مخالطة الناس ومعاشرتهم لانه استطاع ان يكسب قلوبهم بطلاوة حديثه ، فعاش بينهم فى الفة ومحبة ، واحبه رجل ذو منزلة عالية ـ نسيت اسمه وبلده ـ فأمر ان تكون نفقات عيشه وسائر رفقائه من حسابه ، وزوده برجل يهديه الى الطريق الصحيح اثناء رحلته ، ويقدمه الى امراء البلدان التى يمرون بها ليهىء له حسن القبول

(١) « أمريجو » هو مكتشف امريكا بعد كولمبس ، وباسمه سميت القارة الجديدة

وبعد رحلة استغرقت اياما جاء الى مجموعة من المدن تسكنها شعوب غنية سعيدة محكومة بقوانين لايجد النقد اليها سبيلا . .
وقد عبر فى طريقه الى تلك المدن صحراوات فسيحة مترامية الاطراف تكاد ارضها تلتهب بحرارة الشمس التى لاتحول ولاتزول ، فكل مافيها مخيف مفزع كريه بغيض ، وكل ماتقع عليه العين بها ناب ممقوت ، ولايسكنها* سوى صنوف الحيوان المفترس والزواحف الفاتكة ، واقوام من الاناسى لايقلون وحشية عن الحيوان والافاعى . . فاذا ماعبرت ذلك الاقليم المخيف ، اخذ كل شىء يتبدل امام ناظريك ويتغير ، فالهواء بايل عليل معتدل ، والارض يكسوها النخيل الاخضر ، والحيوان طيع ذلول ، والناس يقيمون فى المدائن ويحيون حياة نشيطة سعيدة .

ولست أستطيع أن انقل حديث روفائيل بأكمله ، ولكنى سأروى عنه حديثه عن تلك الشعوب التى الفاها تعيش فى نظام محكم دقيق ، وتحكمهم مجموعة من القوانين الصالحة القويمة ، لانى اكثرت من السؤال فى هذا الموضوع لكى ازداد دراية وعلما بتلك الشعوب وحياتها ، فما اندر ان تصادف شعبا تسوده القوانين الصالحة ! ولقد علمت من حديث الرجل عن تلك البلاد العجيبة شيئا كثيرا مما يصح أن نقتبسه فى بلادنا لنمحو شيئا من اخطائنا

وهاانذا سأقص عليك مارواه الرجل عن اخلاق أهل «يوتوبيا» وعاداتهم وقوانينهم

أخذ روفائيل يتحدث عن قوانين « يوتوبيا » ويقارن بينها وبين قوانين بلادنا ، فابدى مهارة عجيبة ودراية واسعة بنظم الحكم ، فسأله بطرس : انى ليدهشنى ياروفائيل ان تكون على هذا القدر

من العام ولاتلتحق بحاشيــة الملك (١) ، انى لعلى يقين انك تكون فى بلاط الامير درة نادرة ، وتعلو فى تقدير الامير لما يجد فى حديثك عن البلاد العجيبة التى رايتهـا من لـذة ومتـاع ، ولمـا يفيـد من هـداية بنصحك الخالص السديد فى ادارة الحكومة ، بما تضع امام عينيه من امثلة صالحـة . .

فاجاب روفائيل بانه لا يحب ان يستعبده ملك كائنا من كان .

فاعترض بطرس قائلا ان الامر لا استعباد فيه ، بل ستصيب منصبا رفيعا ومالا كثيرا وجاها عريضا تنفع به نفسك واصدقاءك

فاجاب روفائيل : وماذا اصنع بالثروة وانا استمتع اليوم بحرية لاين منها الملوك والامراء ، أفعل ما أشـاء متى اشاء . .

فقلت له : اى صديقى روفائيل انى لاتبين فى وضـوح انك لا ترغب فى مال ولا سلطان ، وانى لاحترم رجلا هذا مذهبـه اكثر مما اقدر اولئك الذين يتسابقون الى القوة والجاه . ولكنى ارى مع ذلك انك تستطيع ان تخدم الوطن وانت فى منصب رفيع الى جانب الامير لتضع فى رأسـه الافكار النبيلة والاراء الفاضـلة وما اصلحك لمثل ذلك .

فأجابنى روفائيل : يا سيدى مور ! انك مخدوع خدعتـين ، مخدوع فى قدرتى ومخدوع فى صفات الملوك وأخلاقهم . أما أنا فليس لى ما شاء فضلك ان يعـزوه الى . وأما الملوك فمعظم عملهم خاص بالحروب - وهـذا شىء امقته واجهله فى ان معا - فهم بالحروب أكثر شغلا منهم بالسلم وصالح الشعب ، وهم يبذلون جهدا فى محاولة توسـيع ملكهم أكثر جدا مما ينفقونه فى محاولة حكم بلادهم حكما صـالحا . . واعجب من هذا يا صديقى أن

---

(١) يلاحظ ان « مور » يقصد نفسه ويريد ان يشرح الاسباب التى حملتـه على رفض المنصب الذى عرض عليه فى بلاط هنرى الثامن

الناس انفسهم لا يابهون للاصلاح فى كثير أو قليل ، ولو بسطت لهم رأيا ناضجا فى اصلاح شئونهم سلقوك بالسن النقد الحداد .

فسألته : ترى هل مررت ببلدنا فيما مررت ؟ فأجاب انه فعل ، ومكث به اربعه اشهر أو خمسه عقب الثورة التى قام بها اهل المناطق الغربية فى وجه الملك فقمعت بسفك الدماء ، وقابل هناك بعض كبار رجال الدولة وتحدث اليهم كثيرا .

وذكر روفائيل أنه عجب أشد العجب حين مر بأرض انجلترا فوجد ان اللص جزاؤه الاعدام(١) وعلق على ذلك قائلا ان ذلك جاوز حد العدل ، فهو عقاب لا يمنع السرقة رغم قسوته . فما من عقوبة تنجح فى منع السرقة مادام السارقون لا يجدون أمامهم فرصة العمل الشريف سانحة ، وما اشبه الحاكم الذى يقتل السارق دون أن يهيىء له العمل اولا بالمدرس الاحمق الذى يضرب تلميذه ولا يعلمه شيئا .

قال روفائيل أنه تحدث فى ذلك الى رئيس أساقفة كانتربرى والى كبير من كبراء الدولة، فأجابه ذو المنصب الرفيع بان القانون الذى يعترض عليه عادل لاعوج فيه ، وان هؤلاء اللصوص فى مكنتهم أن يمتهنوا الصناعات اليدويه أو يشتغلوا بفلاحة الارض لولا ان الشر ركب فى طبعهم ، فقال له روفائيل ان هذا الجواب لا يقنع ولا يسلم من النقد . فدعك من ذوى العاهات الذين أعجزتهم الحرب عن مزاولة صناعاتهم والذين تقدمت بهم السن حتى لم يجد فى مقدورهم أن يتخذوا لانفسهم مهنة اخرى . دعك من هؤلاء وفكر فى الامور التى تجرى تحت بصرك كل يوم ، فانظر الى هؤلاء السادة المالكين الذين لا يكفيهم أن يعيشوا بانفسهم عيش البطالة بما يفرضونه على

---

(١) ينقد مور القانون الانجليزى اذ ذاك

مستأجرى ارضهم من عالى الاجور ، فتراهم يحيطون انفسهم بحاشية من المتعطلين الذين لا يتعلمون صنعة يكسبون بها عيشهم ، حتى اذا ملمات سيدهم او اصابهم المرض شردوا لان السادة يؤثرون الانفاق على متعطل على الانفاق فى سبيل المرضى . فاى سبيل امام هؤلاء غير السرقة ؟ فلا هم بصالحين ان يكونوا فى حاشيات السادة الاغنياء ، ولا هم بقادرين ان يفلحوا الارض وياكلوا من ثمرها لانهم نشأوا نشأة ناعمة لاتعرف هذه الخشونة الغليظة فى العمل .. ثم انظر يا صاحبى الى الاشراف ورجال الدين كيف يبلغ بهم الجشع فى كسب المال ان يحولوا المزارع الى مراع لان الرعى ادر للربح ، فيشردون بذلك الوف المزارعين رجالا ونساء وشيوخا واطفالا ، فيضربون فى الارض يمدون ايديهم طلبا لاحسان المحسنين ، ولاتكتفى الحكومة بهذا فتطوح بهم فى غيابات السجون لانهم يسألون الصدقة ولايعملون ، .. الا ان جشع الاقلية الغنية قد جر الخراب على البلاد : فتبطل وتسول وشقاء وبؤس فى ناحية ، وترف وعربدة وخمر ومقامرة وعهر فى ناحية اخرى لا

لن يكون قتل اللصوص عادلا الا اذا هيأنا لهم عملا بأن نخلص البلاد من بلاء الاغنياء المخيف ، فلا نسمح لهم بطرد المزارعين من أراضيهم حتى نفسح فى ميدان العمل الشريف أمام من عضهم الفقر فاضطروا الى التسول أو السرقة

فسأل الرئيس الدينى الذى كان يستمع الى حديثه : ان كنت ياسيدى روفائيل لا ترى قتل اللص عادلا ، فماذا تقترح للسرقه من عقاب ؟ .. فأجاب روفائيل : ياسيدى لست اظن من الحق والعدل ان نزهق النفوس البشرية من اجل ازهاق المال . ورأيى أن خيرات الارض كلها لا تساوى حياة انسان

واحد . ولقد نهانا الله عن قتل الانسان ، فكيف نتعجل فنزهق حياة رجل لانه سرق حفنة من المال ؟ ان الخطأ فى التفكير بين واضح حين نقول ان اللص والقاتل يجب أن تنزل بهما عقوبة واحدة . اليس هذا يشجع اللص على ان يقتل صاحب المال الذى يريد أن يسرقه مادام قتله لا يزيد من جريمته؟ بل يفسح امامه الامل فى النجاة لانه سيخرس اللسان الذى قد يفضح جريمته ؟ اننا يا سيدى نحاول ان نتعقب اللصوص لنتناولهم بالتاديب فنخلق بذلك القاتلين

لم يكد يصل روفائيل من روايته الى هذا الحد حتى قال له مور : ان ذلك ليزيدنى الحاحا فى ان تلتحق ببلاط الامير لتفيد امتك بسديد رأيك . فاذا كان افلاطون يعتقد الارجاء فى الاصلاح الا اذا كان الفلاسفة حكاما ، او اذا درس الحكام الفلسفة ، فما ابعد الامم عن سعادتها ان اجفل الفلاسفة عن تسديد خطى الملوك بنصحهم الثمين .

فأجاب روفائيل : لست اظن ياسيدى مور ان الفلاسفة ستبلغ بهم القسوة وغلظة القلب هذا الحد البعيد ، بل ان الفلاسفة ليسرهم ان يقدموا لامتهم هذا الصنيع ، بل هم قدموه فعلا بما نشروا من الكتب لو أن اذان الملوك والامراء تصيخ للنصح الجميل . ان افلاطون ياصاحبى قد تنبأ بأن الملوك اذا لم يفسحوا صدورهم لدراسة الفلسفة فان تقبل اذهانهم على نصائح الفلاسفة ، لانهم سيكونون قد تأثروا بالآراء الفاسدة . وذلك مابرهن على صحته افلاطون بنفسه حين ذهب يعلم الملك ديونيس .. اننى اذا قدمت للملك نصائحى وحاولت ان اقتلع من رأسه اسباب الشر والسوء فاما ان يكون جزائى الطرد او السخرية

افرض مثلا ان ملك فرنسا طلب المشورة من رجاله فيما يتصل بحربه مع ايطاليا ، فاشار عليه مشيروه بان يحارب ليوسع من املاكه ، ثم تقدمت انا اليه بالنصح الا يدخل الحرب لان فرنسا وحدها اكبر جدا من ان يملكها ويحسن حكمها ملك واحد ، ثم اخذت اشرح له طرائق اهل « يوتوبيا » في الحكم ليحذو حذوها ، الا اكون بذلك موضعا للسخرية والضحك ؟

فقد حدث مرة أن اهل اليوتوبيا اشتبكوا فى قتال مع بلد آخر ، وكتب لهم النصر وظفروا بذلك البلد لملكهم ، ولكنهم تبينوا فيما بعد ان الاحتفاظ بهذا البلد الجديد فى حوزتهم يكلفهم حربا متصلة لاتنقطع ، يقمعون ثورته مرة ويردون عنه المهاجمين مرة اخرى ، فلم يترددوا فى التنازل عنه ، اذا رأوا ان من الخير لهم أن ينصرف ملكهم الى حكم بلدهم وكفى ليستمتعوا جميعا بالسعادة وراحة البال

هبنى ياصديقى قلت لملك فرنسا نصيحة كهذه ، واشرت عليه بان هذه الاهبة للحرب ستحدث القلاقل فى امم كثيرة وسينفق فى سبيلها المال ويهلك الرجال ، وان ذلك الاضطراب كله سينتهى بلا شىء ولن يعود على احد بطائل ، وانه خير له ان يقنع بفرنسا ويكفيه فخرا ان يوفر لشعبها السعادة والثروة والهدوء ، فلا ينبغى ان يتدخل فى شئون غيره من الامم لان ما يملكه فوق مايكفيه .. اقول لو انى تقدمت بمثل هذا النصح الى ملك فرنسا ، فكيف تراه يقع من نفسه ياسيدى مور ؟

فقلت : ما احسبه شاكرا لك هذا النصح

فقال : هب اميرا اخذ يفكر ويستشير ذوى الرأى فى ملء خزائنه بالمال ، فينصحه مشير أن يرفع قيمة النقد اذا كان

عليه ان يدفع مالا . وان يخفض قيمة النقد اذا كان على الناس ان يدفعوا له مالا ، وبهذا يستطيع الملك ان يدفع قدرا ضئيلا من المال فيسدد به دينا عظيما ،وان ينال قدرا عظيما من المال حين يكون من حقه قليل منه.. او اذا نصح له ناصح بان يزعم باطلا امام الشعب انه يعتزم محاربة الاعداء ، وياخذ فى جمع الضرائب تبعا لذلك ، حتى اذا ماحصل مبلغا جسيما ، اعلن فى شعبه انه آثر الصلح لانه يحب شعبه ولا يرضى له سفك الدماء .. او اذا اشار مستشار بأن يفرض الملك غرامات مالية على من يعتدى على هذا القانون او ذاك من القوانين التى تقادم عهدها حتى نسيها الناس ،وبذلك يجمع مالا طائلا من ظلم ظاهره العدل الشريف ...

اقول لو اراد الملك ان يجمع لنفسه المال فأشار عليه المشيرون ان يلجأ الى تلك الوسائل وامثالها ، بحجة ان بقاء الثروة فى ايدى الشعب يجعله صعب القياد نزاعا للثورة ، فمن الخير ان تسلب امواله على هذا النحو حتى يخرس الفقر السنة الثائرين ، فماذا عساى ان اقول للملك بعد هذا ؟ ! اقول ان هذه النصائح لاتشرف الملك الذى تتوقف سلامته ومكانته على ثروة شعبه اكثر مما تتوقفان على ثروته الشخصية ؟ ! اقول ان الشعب يختار الملك ليحكم فى صالح الشعب نفسه لا فى صالح الملك ، وانه يختاره ملكا لينفق عمره فى تهيئة العيش الرغيد الهادىء للجميع دون ان يعرض الناس للضرر والخطر ولذا وجب على الملك ان يفكر فى ثروة شعبه أكثر مما يفكر فى ثروته هو ، كما ان وظيفة الراعى - من حيث هو راع - ان يطعم الغنم قبل ان يطعم نفسه ؟

من ذا تحدثه نفسه بالثورة الا الساخط على حالته الراهنة؟

من ذا يسعى الى تعكير الصفو الا من لايملك شيئا يخشى ان يفقده ؟ .. ان الشعب اذا ازدرى مليكه ولم يعد ينظر اليه نظرة الاحترام والتقدير بحيث يعجز الملك عن حفظ الامن الا بالسبل الباطله والضرائب الظالمة فخير له ان يغادر عرش الملك ، لانه ان أصر على البقاء فسيكون ملكا بغير جلال الملك .. ان الملك لايشرفه ان يبسط سلطانه على شعب من المتسولين بل فخاره ان يحكم قوما اغنياء . وهذا ماقاله احد الملوك القدامى : خير لي ان احكم شعبا غنيا من ان اكون غنيا .. ليست وظيفة الحاكم ان يعيش في بذخ وبحبوحة في شعب يتضور جوعا ويئن من الالم ، ولكنها وظيفة السجان

ان الملك الذي لايقوى على اصلاح شعبه الا اذا سلبهم مالهم يكون كالطبيب العاجز الذي لايستطيع ان يعالج علة في مريضه الا اذا سبب له علة اخرى . ومن هذا شانه من الملوك يجب ان يسلم بان صناعة الحكم ليست في مقدوره ... اما الملك الصالح فهو من احتقر اللذائذ الدنيئة وتخلص من كبريائه وحاول الا يوقع الاذى باحد من شعبه . وهو الذي يمنع اسباب الفوضى واعتداء الافراد بعضهم على بعض بما يضع لهم من دقيق النظام ، لا بان يزيد اسباب الاعتداء ثم ينزل بالمعتدين العقاب ... لو تقدمت الى الملك بهذه النصائح، الا يشيح عني بوجهه ولايستقبل حديثي الا باذن صماء ؟

فاجبته ان نعم ، ثم اضفت انه ماينبغي ان يصارح الملوك بكل قول صحيح ، فلكل مقام مقال . ولكن ان كان عسيرا على الحكيم ان يقتلع من رءوس الملوك اخطاءها ، فليس ذلك بمبرر له ان يهمل صالح الدولة . افتترك السفينة في العاصفة الهوجاء لانك لاتستطيع ان تسيطر على الريح ؟ وقلت له ان واجبك ياصاحبي

الا تفجأ الملك بكلام شاذ غريب لم تألفه مسامعه ، بل شأنك ان تعالج الامر فى مهارة وكياسة حتى تبلغ غايتك ، وما لا تستطيع ان تصلحه كل الاصلاح فتقوم عوجه ما وجدت الى ذلك سبيلا حتى لا يكون سيئا كل السوء ، لان الاشياء لا تطيب ولا تجود الى اقصى غايات الطيب والجودة الا ان طاب الناس اجمعون ، وذلك مالن يكون الا بعد حين طويل من الدهر

فاعترضني روفائيل قائلا : اذن فلن اغير شيئا مما هو كائن ، وما دمت اعيش بين قوم مجانين فلأكن مجنونا مثلهم . والا فماذا انا صانع ؟ اقول الحق فاصادف آذانا صماء ، ام اقول الباطل وانا عليم ببطلانه ؟ لا ، لن اقول باطلا عن عمد ما حييت . واما الحق فسينبو عن اسماعهم لانهم لم يألفوه ، فلو صارحت الناس بما قاله افلاطون فى تنظيم الدولة او بما يسود يوتوبيا من قوانين لهالهم ان يعلموا ان افلاطون واهل يوتوبيا يأخذون بمبدأ الاشتراكية ولا يقرون هذه الملكية الفردية التى تقوم بيننا

انك لتنصحني يا سيدى مور أن أراوغ فى بسط آرائى للامير الحاكم فلا اواجهه بالحقيقة عارية مرة ، وذلك يذكرنى بشىء وهو ان آراء المسيح على حقيقتها بعيدة كل البعد عن افهام الناس ، بل هى اغرب عليهم من آراء اهل يوتوبيا ، فلجأ القساوسة الى سياسة عجيبة ، وهى ان يحوروا ويشذبوا من آراء المسيح حتى تقرب من افكار الناس فلا تبدو لهم عجبا . اتريدنى على انتهاج هذا السبيل فى اعلان آرائى الجديدة ؟ انى ان فعلت ما افاد الناس شيئا ، لانى اما تاركهم فى غيهم يعمهون ، او دافع بهم الى ضلال فوق ضلالهم

اذا رضيت ان اكون ناصحا للملك فاما ان اقول رأيا يخالف

رأيه ، وهذا يساوى الا اقول شيئا لانه لن يستمع الى قولى ، واما ان اقول مايتفق مع رايه وهذا يشجعه على ماهو ماض فيه من جنون

خذها كلمة ياسيدى مور ، مادامت الملكية الفردية قائمة فلا رجاء فى اصلاح ، الا اذاكان رأيك ان العدل يستقيم ميزانه اذا وضعت الاشياء فى ايدى الاشرار أو اذا قسمت الثروة بين نفر قليل من الناس وعاش الباقون فى فاقة وشقاء

ان اهل يوتوبيا يأخذون بمبدأ الاشتراكية ، ولذا ترى كل انسان هنالك مسدود الحاجات ، بل تغمره وفرة من الانتاج .. فأنا اوافق افلاطون فيما ذهب اليه من اشتراكية ، ولست اعجب حين اعلم برفضه ان يسن الشرائع لقوم لايستمعون الى نصحه فى قسمة الثروة بالتساوى بين الجميع . فقد ادرك ذلك الفيلسوف العظيم الا سبيل الى سعادة المجتمع الا ان تسود المساواة بين الافراد فى كل شىء ، وهذه المساواة المطلقة مستحيلة مابقيت الملكية الخاصة قائمة . فاذا طفق كل فرد يسعى جهده فى تحصيل مايمكن تحصيله من الثروة ، كانت النتيجة المحتومة لذلك ان تنحصر الثروة فى ايدى طائفة قليلة وان يظل الباقون — وهم الكثرة الغالبة — فى فقر وحاجة. مع ان هذه الكثرة فى معظم الحالات احق بالتمتع بالمال من أولئك الاغنياء ، لان الاغنياء كثيرا مايستولى عليهم الجشع فى جمع المال دون ان يؤدوا عملا يفيد امتهم ، اما الفقراء فهم الذين يعيشون عيشة البساطة ويفيدون امتهم بما يؤدونه كل يوم من الاعمال اكثر مما يفيدون انفسهم .. فيقينى الذى لا اشك فيه هو اننا لن نبلغ الكمال فى توزيع الثروة الا اذا حطمنا قوائم الملكية الخاصة

ما دامت الملكية الفردية قائمة فسيبقى الفقر بعبئه الثقيل . نعم قد تخف وطاة شره ببعض الشرائع الحكيمة ، كان يضرب حد اقصى لما يجوز ان يملكه الفرد او لما يجوز ان يحوزه الملك من الارض والسلطان ، وان يحرم توزيع المناصب بالرشوة والهدايا لان ذلك يجعل مناصب الدولة فى مقدور الاغنياء وحدهم مع ان الحكماء من ذوى العقول الراجحة هم احق بها ، اقول انه قد تخف وطاة الشر بمثل هذه الشرائع ولكن البلاء لايزول ولا يقتلع من جذوره الا ان اتينا على الملكية الخاصة فمحوناها محوا من الوجود

فاعترضت روفائيل قائلا : ولكن اشتراكية الاشياء بين الناس لاتحفز احدا الى الجد فى العمل ، وبذلك يكتب عليهم جميعا ان يعيشوا عيش الفاقة اذ ينضب معين الانتاج بقلة العمل

فاجابنى : لست اعجب ان يكون هذا رايك ، فانت تتصور الموضوع تصورا باطلا . فلو رايت معى اهل يوتوبيا وشهدت حياتهم وما يسودها من قوانين - فقد عشت بين ظهرانيهم خمسة اعوام وكنت اوثر البقاء لولا اننى طمعت ان اعود لانشر بين الناس هنا انباء ذلك العالم المجهول - اقول لو كنت معى ياصديقى مور لايقنت ان ذلك هو نظام الحياة الكامل والا نظام سواه

ومن حسناتهم انهم اذا علموا شيئا جديدا مفيدا ممن تطوح به الاقدار كما طوحت بى الى بلادهم ، فانهم لايترددون لحظة فى الاخذ به وتطبيقه مادام صالحا نافعا . اما نحن فوا اسفاه ! نسمع بنظام احسن من نظامنا فلا نابه له . ولعل

ذلك الفارق هو وحده الذي يجعل اهل يوتوبيا — في رأيي — اصلح منا للحياة والبقاء ، وان لم نكن اقل منهم في الثروة والذكاء

فقلت لروفائيل : اذا كان الامر كذلك فانو سل اليك ان تصف لي تلك البلاد ، ولا توجز الوصف بل قل في اطناب لاعلم كثيرا عن ارضهم وانهارهم ومدنهم واخلاقهم وقوانينهم ونظمهم وكل ما تحب ان تنقل عنهم من جوانب الحياة وما احسبك باخلا علينا بهذا .

فقال : بل ليس احب الي من ذلك ، فالامر في ذهني بين واضح ولكنه يقتضي بعض اوقات الفراغ لروايته .

قلت : لنتناول الان طعام غدائنا ولنرجيء الحديث الى وقت اخر .

وكان ان فرغنا من الطعام وعدنا الى الحديقة حيث كنا ، فجلسنا على المصطبة المعشوشبة ، وآثرت الا يدنو منا احد من الخدم حتى لا يضطرب حبل الحديث ، وجلسنا ثلاثتنا : انا وصديقي بطرس وروفائيل ، وانصت روفائيل قليلا ، وارهفنا له الاذان ، فشرع يقول : ..

الكتاب الثاني

يوتوبيا جزيرة يبلغ عرضها في وسطها — وهو اعرض اجزائها — مائتي ميل : ثم ينثني طرفاها بحيث تصبح الجزيرة في شكل هلال وليد ، وينفذ البحر بين طرفيه اللذين يبعد احدهما عن الاخر احد عشر ميلا او مايقرب من ذلك

وتنهض في وسط الجزيرة صخرة عالية أقيم عليها برج حصين تحرسه حامية من الرجال وقد نتأت صخور تحت سطح

البحر بقرب الشاطىء بحيث يستحيل على القادم الغريب أن يسلك بسفينته سبيلا سويا الآن يهديه دليل من أهالى الجزيرة الى الميناء الذى يقصد اليه وهذه الصخور الناتئة كفيلة وحدها ان تسحق الاسطول المهاجم كائنا ماكان .. هذا فى البحر ، واما فى البر فقد شيد حجز منيع على حافة الجزيرة ، أقامت بعضه الطبيعة ، وتممه الانسان ، فيكفى عدد قليل من الجند لحماية الجزيرة كلها من هجمة الاعداء

وفى جزيرة يوتوبيا اربع وخمسون مدينة كبيرة جميلة تتكلم كلها بلسان واحد ويلبس الاهلون جميعا طرازا واحدا من اللباس ، ولهم جميعا خلق واحد، وتسود المدائن كلها نظم واحدة وقوانين بعينها .. ولا تبعد مدينة عن مدينة اكثر من رحلة يوم واحد مشيا على الاقدام .وعلى كل مدينة ان تختار من بين ابنائها شيوخا ثلاثة فيجتمع شيوخ الجزيرة كلها معا للتشاور فى شئون الدولة .

والمدينة تنقسم الى اسر لا ينبغى أن تقل الواحدة منها عن اربعين شخصا يخضعون جميعا للرجل وزوجته اللذين لابد ان يكونا عاقلين حكيمين تقدمت بهما السن ، وعلى كل ثلاثين أسرة يقوم رئيس أو حاكم • وتشترط الدولة على كل اسرة ان ترسل كل عام عشرين من ابنائها الى مزارع الريف حيث يقضون الحول فى فلاحة الارض ، حتى اذا ما مهر الجميع فى الزراعة كان لكل واحد الحق فى البقاء فى الريف أن أراد

اما واجب المزارعين فهو حرث الارض وزرعها وتربية الماشية وقطع الاخشاب وارسالها الى المدينة ، وهم يربون قليلا من الجياد الحوشية لتدريب الشبان على الفروسية وركوب الخيل

وهم لايزرعون الا قمحا لخبزهم ، وأما شرابهم فنبيذ العنب أو عصير التفاح والكمثرى او الماء القراح . ولابدان يزرعوا مايزيد عن حاجة المدائن جميعا ليصدروا القدر الزائد الى الامم المجاورة

والمدن كلها متشابهة بحيث يكفيك ان تعرف واحدة منها لتعرفها كلها ، وسأصف لكم احداها وتسمى « اموروت » لانها مقر مجلس الشورى وتعترف لها بقية المدائن بالرئاسة

تقع « اموروت » فى حضن تل وطىء ويتخللها نهر تصب فيه نهيرات كثيرة ، واهلها يحافظون على منابع هذه الانهار فيقيمون حولها الاسوار حتى لايمنعها عنهم عدو او يصيبها باذي . وقد احاطوا المدينة بسور من الصخر عال كثيف ، واحتفروا حولها خندقا عميقا تحفه الاشجار والاشواك

واما المنازل فقد تلاصقت فى فخامة وجمال ، تمتد بينها طرق لايقل عرض الواحد منها عن عشرين قدم ، وزرعت الحدائق الغناء خلف الدور ، ولكل منزل بابان ، احدهما يطل على الطريق والاخر يفتح فى الحديقة الخلفية وهى ابواب يسيرة الفتح والاغلاق ولا يجوز لساكن الدار ان يغلقها بالاقفال والدرابيس حتى يتيسر لمن شاء ان يمر خلالها . ولم يغلق صاحب الدار ابوابه وليس فى الدار مايملكه ملكا شخصيا اصلا الى ان اهل المدينة يتبادلون الدور حينا بعد حين .. وتدب المنافسة بين سكان الطرق المختلفة ، فكل فريق يريد ان يبلغ شارعه حدا أقصى من الجمال ، ولذا فهم لايدخرون وسعا فى تجميل الطرق وتنسيقها حتى تبدو بهجة للناظرين . ولعل أجمل مايسترعى النظر فى المدينة ، حدائقها التى يراعى فى زرعها الجمال والاثمار فى آن معا ، واظن ان مؤسس المدينة كان قد عنى بالحدائق اول ماعنى

رؤساء المدينة

تختار كل ثلاثين اسرة ممثلا لها ، ثم يختار كل ثلاثين ممثلا من هؤلاء رئيسا . على ان يشترك الممثلون جميعا فى انتخاب امير البلاد الذى يظل فى منصب الحكم ما بقى حيا ، الا اذا ارتكب من الخيانة ما يستحق العزل من اجله

وان نشأت خصومة بين الافراد نظر فى امرها قاضيان من هؤلاء الرؤساء . اما ما يتعلق بشئون الدولة كلها فلا بد ان يعرض على مجلس الشورى باجمعه على ألا ينفذ منه شىء الا بعد مناقشته فى المجلس ثلاثة ايام . ومن يناقش فى امور الدولة خارج مجلس الشورى يحكم عليه بالاعدام ، وهم انما أرادوا بهذا القانون الا يتآمر الاعضاء خارج المجلس مع الامير على انتهاج خطة يدبرونها

ولا يبيح قانون مجلس الشورى ان يناقش موضوع الا اذا سبق عرضه فى جلسة سابقة ، ولا يجوز البتة ان يبدأ عضو من فوره فى بحث موضوع لم يسبق عرضه فى جلسة سابقة ليتقوا بذلك شر ان يقول العضو كل سانحة تمر بذهنه ويأخذ فى الدفاع عنها بغير روية ولا تفكير

العلوم والصناعات والاعمال

الزراعة صناعة محتومة على الجميع رجالا كانوا أو نساء ، فهم يمارسونها منذ الصغر ، فيلقنون مبادئها العلمية فى المدرسة ويزاولون شئونها العملية فى مزرعة مجاورة لمكان اقامتهم

ثم لكل فرد فى الدولة ان يختار الى جانب الزراعة صناعة اخرى

يتعلمها من وجهيها العلمي والعملي كصناعة الاقمشة او البناء او الحدادة او النجارة .. ويفرض قانون يوتوبيا ان يلبس الرجال جميعا لبسا لايختلف فيه رجل عن رجل ، وان يكون للنساء المتزوجات رداء واحد كذلك ، ولغير المتزوجات منهن رداء آخر ، وقد روعي فى الحلة المقررة ان تكون جميلة سهلة لاتعوق حركة الجسم ، وان تصلح الصيف والشتاء معا ، وعلى كل اسرة بحكم القانون أن تنسج ملابسها بنفسها

اقول ان كل فرد فى يوتوبيا لابد ان يتعلم صفة يختارها فوق الزراعة ، على ان يقوم النساء بصفة عامة بالصناعات اليسيرة نوعا كالغزل والنسج ، وان يقوم الرجال بالشاق من الاعمال كالبناء وما اليه .. على أن العرف السائد فى معظم الاسر ان يأخذ الطفل صناعة ابيه ، فان حدث ان طفلا نفر من صناعة ابيه تولت الدولة نقله الى اسرة اخرى يشتغل ربها بالصناعة التى اختارها ذلك الطفل . فالزراعة وصناعة اخرى محتومتان على كل فرد بغير استثناء ، ولكل فرد بعد ذلك ان يختار مايشاء من الصناعات فى أوقات الفراغ

فان كان واجب الدولة أن تكلف كل فرد بها بعمل يؤديه ، فواجبها كذلك الا تسمح بأن يجبر فرد على العمل من الصباح الى المساء كأنه حيوان اعجم . فلا ينبغى ان يزيد العمل كل يوم عن ست ساعات ، ثلاث منها قبل الظهر ، ثم يؤذن للعمال بساعتين للغذاء والراحة ، ثم ينجزون بقية عملهم فى الثلاث الساعات الباقية ويتناولون بعدها عشاءهم ، حتى اذا ما كانت الساعة الثامنة من المساء انصرف الجميع الى المخادع حيث ينامون ثمانى ساعات .

ومن حق الفرد ان يتصرف فى وقت فراغه كما يريد على الا يتجه فى ذلك الى الرذيلة وسوء السلوك . والدولة تنظم محاضرات

تلقى فى الصباح من كل يوم ليستمع اليها من اراد . . اما بعد العشاء فهم يخصصون ساعة اللعب والسمر ، ينفقونها فى حديقة الدار ان كان الصيف ؛ وفى قاعة داخل الدار ان اقبل الشتاء . ولكنهم لايبيحون العاب النرد ومايشابهها ، ويؤثرون العابا تشبه الشطرنج .

ولقد يخيل اليك ان ست ساعات لاتكفى لينتج العاملون محصولا كافيا ، فلا يغيبن عن ذهنك ان فى الامم الاخرى شطرا عظيما جدا متعطلا لاعمل له ،فلا عمل للنساء وهن النصف من كل امة ، وحتى لو عمل النساء فى بلد وجدتهن يملأن فى ذلك مكان الرجال . ثم اضف الى ذلك رجال الدين والسادة الاغنياء الذين تسمونهم اشرافا ونبلاء ؛ فضلا عمن يخدمون هؤلاء الاشراف ، زد على هؤلاء واولئك الوف المتسولين الذين يسترون تعطلهم بستار المرض .. فاحذف هذا العدد الجسيم من أية أمة شئت وحدثنى كم يبقى بعد من الرجال العاملين؟ هم قليلون ـ أقل جدا مما قد تصور لنفسك ـ فان عملوا ساعات كثيرة كل يوم فلن ينتجوا ماينتج اهل يوتوبيا فى ست ساعات .

ثم سائل نفسك كم من هذه الفئة القليلة العاملة فى بلادنا يعمل عملا مفيدا . انهم أقل من القليل ، لانه حيث يسود المال تشيع اعمال تافهة لاخير فيها لتشبع الملاذ الدنيئة التى يسعى اليها الاغنياء . . اما اذا عمل كل فرد عملا مفيدا ، اذن لالفيتهم ينتجون فى زمن قليل مايزيد عن حاجة الجميع

وفضلا عن ذلك كله ، فأهل يوتوبيا يوفرون على أنفسهم كثيرا من العمل بفضل المساواة التى يفرضونها بين الناس . فليس لاحد منزلان أو أكثر كما هى الحال بيننا ، وبذلك يدخر البناءون

كثيرا من جهدهم الضائع فى هذه البلاد ، ولا يجوز للرجل هناك ان يستهلك أكثر من جلباب واحد كل عامين ، فأين هذا مما تراه حولك من تصرفات المترفين الاغنياء ، الذين لا يكفى الواحد منهم عشر حالل فى العام الواحد ؟

وقد تسألنى : ومن ذا يقوم فى ارض يوتوبيا بالاعمال الشاقة العسيرة كرصف الطرق وما إليها والجواب أن ذلك متروك للمسجونين من المجرمين ، فان بقى شىء أعلنت الدولة أن من يقبل على هذا العمل فله أن يستمتع بوقت فراغ أطول مما يستمتع به سائر الافراد ، وبذلك تغرى قوما باختيار هذه الاعمال، لان حكومة يوتوبيا اخذت على نفسها ألا ترغم أحدا على عمل من الاعمال

اتصال الأفراد

قلنا ان مجتمع اليوتوبيا يتألف من اسر ، وان راس الاسرة هو اكبر الذكور سنا ، فان خرف ولى مكانه من يتلونه فى السن

وتشترط حكومة يوتوبيا الاتزيد الاسرة ولا تنقص عن حد أقصى وحد ادنى تفرضهما الدولة فرضا ، فان زادت أسر عن العدد المفروض اضيفت الزيادة الى اسرة قل عدد افرادها . فان زادت اسر المدينة كلها اخذت الزيادة لتكمل النقص فى مدينة اخرى . وان زادت المدن كلها اخذ العدد الزائد من كل مدينة ليجتمعوا فى مدينة جديدة تبنى لهم فى ارض مهملة .

وفى كل مدينة اربعة إحياء « اقسام » لكل قسم سوق خاصة به تضع فيه كل اسرة ماانتجته ، فيذهب ارباب الاسر ليأخذ كل منهم ما تحتاجه اسرته دن ان يطالب بثمن يدفعه ا!



خير لى أن أكون ملكا على شعب غنى • من أن أكون غنيا على شعب فقير

ضريبة يؤديها .. وفيم المال والضريبة ؟ أليس المحصول الناتج أكثر مما تقتضيه حاجة الناس؟ اذن فليأخذ كل منهم مايريد، ولا محل للخوف من طمع يغرى الناس بأخذ ما يزيد عن حاجتهم لان كل فرد يوقن يقينا لاشك فيه انه لن يتعرض يوما للحاجة والفاقة ، فما الذي يغريه بالطمع ان صنوف الحيوان قد تخشى الحاجة والجوع فتكدس من القوت مالا حاجة لها به فى وقتها الراهن ، ويضيف الانسان الى خوفه من الجوع زهوه وكبرياءه بكثرة ماتملكه يداه . ولكن ارض يوتوبيا لاتعرف معنى الحاجة لكثرة انتاجها بسبب اشتغال أهلها جميعا بالانتاج ، ولا تعرف معنى الزهو بكثرة الاملاك لانها فرضت بين الناس المساواة فى كل شيء .

واذا ما حان موعد الطعام نفخ فى صور ليخف الناس الى قاعات فسيحة تسع افراد القسم جميعا حيث يأكلون معا طعاما واحدا ؛ اعده طهاة شعبيون . ويجوز لمن يريد ان يحتجز لنفسه مايريد من الطعام ليأكله فى داره على حدة . ومن تقاليدهم ان يحجز اولا طعام المرضى ليرسل لهم فى مستشفياتهم ، وطعام الغرباء الذين قد يزورون بلدهم حينا بعد حين .. وتبدأ كل وجبة بقراءة شيء مما يحث على الفضيلة . ولرؤساء الاسر الحق الاول فى الحديث على الموائد ليستمع الى حديثهم سائر الافراد ؛ على ان واجب هؤلاء الرؤساء ان يستحثوا الشبان على الحديث ليعودوهم الجراة وحسن الكلام

السفر

على من يريد السفر الى بلد غير بلده ان يستأذن الدولة فى ذلك ، لتسمح له بالامد الذى يجوز له ان يقضيه فى رحلته ،

وليس هناك مايدعو المسافر الى ان يصطحب زادا او متاعا ؛ فأينما حل فهو بين اهله وعشيرته على شرط الا يمكث بغير عمل فى مكان ما اكثر من يوم واحد ، فان اراد البقاء اكثر من ذلك كان حتمـا عليه ان يزاول مهنته على الفور . فان زاد الانتاج فى مدينة ونقص فى مدينة اخرى ، سد النقص هنا بالزيادة هنـاك . وان كان فى الجزيرة كلها زيادة فى المحصول ؛ ارسلت الزيادة الى الاقطار المجاورة لتوزع على الفقراء . .

واهل يوتوبيا لايحبون الذهب ولا يسعون اليه ، وهم يقومونه بقيمته فى الصناعة فلا يجدونه مساويا لقيمة الحديد . انهم لا يدرون لمـاذا تخلع الأمم عـلى الذهب والفضة قيمة ليست لهما بحكم طبيعتهمـا ، ويرون ان الطبيعة ام رءوم ، بسطت كفها فيما يفيد فزودتنا بما لاينفد من هواء وماء وارض ، وقبضت كفها فى التوافه التى لاتنفع ودستها فى باطن الارض كما فعلت بالذهب والفضة

ولقد خشى أهل يوتوبيـا أن ينخدع بعض الناس ببريق الذهب فيأخذون فى جمعه وتحصيله ، فقرروا أن تصاغ منه قيود المجرمين واغلال المساجين ، فعقاب هذه الجريمـة قرط من ذهب يعلق بالاذن ، وعقاب تلك الجريمـة حلقة من ذهب يخزم بهـا انف المجرم ، او عقد يطوق به عنقـه او سوار يدور حول معصمه .

بهذا انزلوا من قدر الذهب والفضـة حتى اصبحا عـلامة التحقـير وموضـع السخـرية والازدراء . واما سائر الجواهر الكريمة فشانهم فيها ان يحـلى بها الاطفـال ، حتى اذا ما شب هؤلاء عن الطوق القوا بها كمـا يلقى اطفالنا بلعبهم ، ويأنفـون اللعب بها حتى يثبتوا انهم قـد تركوا مرحلة الطفولة .

ولقد حدث ذات مرة ان بعثت بعض الدول الاجنبية بسفرائهـا

الى ارض يوتوبيا ، فرايت بعيني راسى كيف استقبلهم النـــاس هناك ... جاء السفراء مثقلين باحمال من الذهب فى أعنـاقهم وعلى صـدورهم ظنـا منهم ان ذلك يرفع منزلتهم ومنزلة امتهم فى اعين الشعب ، فلشد ما دهشوا حين الفوا الذهب هناك سمـة المجرمين وشارة الاطفال ، فمـا لبثوا أن القوه حتى لا يكونوا من الناس موضع السخرية .. وقد سمعت طفلا وقف الى جانب امه اثنـاء مرور موكب السـفراء يصيح قائلا :

ـ انظرى ياأماه كم بلغ هـذا الرجل من السن وما زال يتعلق بلعب الاطفال !

فاجابته الام قائلة : صه يابنى فلعـله تابع من اتباع السفـراء جاءوا به ليكون منهم موضـع الضحك والسلوى ..

ان اهل يوتوبيا ليأخذهم العجب من رجل تبلغ به البلاهة والجنون حد الغبطة ببريق حجر كريم ، فان كان غرضه البريق المتلألىء فلماذا لايملأ بصره برؤية الشمس والنجوم ؟.. ولشـد مايدهش سكان يوتوبيا حين يسمعون ان اهل البلاد الاخرى يقيسون منزلة الرجل بمقياس نسج ردائه ، فان كان دقيـق الغزل كان الرجـل شريفا نبيلا ، وان كان غليظه كان من السوقة والعامة وهم يتساءلون فى عجب : اما يدرى هـؤلاء ان الصوف الذى صنعت منه الملابس ـ رق غزلها او غلظ ـ كان يغطى جلد خروف بعينه ، وان الخراف فى منزلة سواء فلا امتياز لصوف على صوف ؟

يعجب اهل يوتوبيـا كيف تؤدى الغباوة بالناس الى تقويم الذهب ـ مع ان الذهب بطبيعته لانفع فيه ـ تقويما يخلون به على بعض افراد الانسان ، وكان ينبغى ان يكـون الـذهب اداة لخدمة الناس ونفعهم .. يعجبون مما سمعوه بأن الغبى الابـله فى

مقدوره ان يستذل من هم احكم منه واعقل اذا كان فى حوزته كومة من الذهب ، فان تحولت كومة الذهب الى خادمه ، اصبح الخادم من نوره سيدا والسيد خادما .. واعجب العجب عند اهل يوتوبيا ان يحترم الناس الغنى لماله مع انهم على يقين من انهم لن يكسبوا من ماله مليما واحدا .

عرف اهل يوتوبيا كل ذلك فيما لقنوه فى المدرسة وفيما قرأوا من الكتب التى يؤلفها ذوو الكفاية العقلية فى اوقات الفراغ التى اشرنا اليها .

واهم مايعنون بدراسته سعادة الانسان . والرأى عندهم ان ينشد كل انسان سعادته على شرط الا تغرينا سعادة صغرى فنفقد بسببها سعادة اكبر منها .. وهم يعدون من علامات الجنون ان يجد انسان سعادته فى اذلال غيره ، كان يطالبه بالركوع بين يديه او بالانحناء او بلبس رداء او بخلع رداء . ماذا يفيدك ان تكلف غيرك مثل هذا ؟ ايخفف ذلك من آلامك التى تشعر بها ؟ الأن اباك او جدا من اسلافك اورثك ارضا يكون من حقك ان تكلف سواك بما يؤذيه ولا يفيدك ؟

وماذا اقول فى اولئك الذين يملكون ثروة اضخم مما يتطلبون؟ ان الفتى الذى يملك اكثر مما يحتاج يخزن ثروته ويحرص عليها ألا تتسرب الى أيدى سواه، فأى فرق بين مال مخزون ومال معدوم ؟

وانظر الى هؤلاء الاغنياء يقتلون فراغهم فى الصيد ؟ فخبرنى بربك ماللذة الصيد ؟ دعك من الاذى الذى يصيب الحيوان فى غير مبرر ولاطائل ، وحدثنى لم يسر الانسان ان يتابع كلب ارنبا ؟ ان كانت اللذة فى رؤية الكلب وهو يجرى ، فلماذا لايتابع كلب كلبا آخر ؟ واما ان كانت المتعة ان يرى الارنب قتيلا منهوش الجسد

فأي نفس هذه التى تلتمس لذتها فى منظر البرىء يسحقه المعتدى ، والضعيف يفتك به القوى المفترس؟ ان اهل يوتوبيا ليستنكرون ذلك، ولايجيزون لاحد منهم ان يسفك دم الحيوان . بل ان مايذبحونه لطعامهم يكلفون المجرمين بذبحه خشية ان يتحول القتل الى عادة فيفسد بذلك واحد منهم وتميل نفسه الى الشر .

أما سعادتهم فيقسمون اسبابها قسمين : سعادة روحية يلتمسونها فى البحث عن الحقيقة، وسعادة جسدية يجدونها فى الاحتفاظ بصحة الابدان

وهم لايقرون وجهة النظر التى تحتقر الجمال وتبدد قوة الجسد بالصوم والتقشف وما اليهما ، فليس من الحكمة عندهم ان ترفض اللذائذ مخدوعا بان ذلك هو الفضيلة ، او ان تعرض نفسك لالوان من الشقاء والالم لتثبت انك قادر على احتمال الصعاب، فذلك فى رأيهم قسوة وجنون

ولما كان اهل يوتوبيا يعنون كل هذه العناية بصحتهم ، فانت تراهم خفافا سراعا يمتلئون نشاطا وقوة ، وكان من اثر ذلك قدرتهم على استثمار ارضهم اضعاف ماتستثمر الاقوام الاخرى اراضيها ، مع ان تربة بلادهم ليست شديدة الخصب .. ولن تجد شعبا اطول من اهل يوتوبيا اعمارا واقل تعرضا للامراض ، وكلهم مرح رقيق سريع ذكى هادىء قادر على بذل مجهود عضلى عظيم اذا اضطره الموقف الى ذلك . ولكن حياتهم قلما تضطر احدا على الاجهاد ...

سمعنى اهل يوتوبيا اتكلم اليونانية فالحفوا فى تعلمها فعلمتهم اياها ، لا لانى اعتقد فى نفعها لهم ولكنى اردت ان اؤدى عملا ما فى تلك الارض التى لاتعرف للبطالة معنى .. فلم اكد امضى

فى تعليمهم حتى اخذتنى الدهشة من سرعة تقليدهم للنطق الصحيح وحفظهم للكلمات والعبارات . ولم تمض سنوات ثلاث حتى كان فى مقدورهم ان يقرءوا ما ارادوا من الكتب اليونانية . . فاستعاروا منى كثيرا من كتبى ، وبخاصة كتب افلاطون وارسطو ، وكان عندهم عدد كبير من مؤلفات بلوتارك وارستوفان وهومر ويوريبيدوسوفوكليزوثيوسيديد وهيرودوت .

العبيد والمرضى والعلاج

كل من اجرم اصبح عندهم عبدا رقيقا يكلف باشق الاعمال ويعمل عملا متصلا لا ينقطع ؛ ولا تحل عنه الاغلال مادام عبدا ، وهم يبررون هذه القسوة بقولهم ان هؤلاء المجرمين قد نشاوا فى بلد هيأ كل فرصة ممكنة لعمل الفضيلة وطاعة القانون ، فان اغرت الرذيلة احدا بارتكابها رغم كل ذلك فهو خليق أن يستذل فى غير رحمة .

واما المرضى فيلقون منهم عناية ورعاية وعطفا . فاهل يوتوبيا لا يالون جهدا فى معالجة مرضاهم .. فان اصيب المريض بعلة لا يرجى شفاؤها وجدتهم يسارعون الى مجالسته ومؤانسته ليرفهوا عنه . اما ان كانت العلة تسبب للمريض آلما فضلا عن استعصائها على البرء فان القساوسة ورجال الدولة ياخذون فى اقناعه بقتل نفسه حتى يتخلص من ذلك الالم المطبق لانه فوق انه يؤلم سواه ولا يعمل للدولة عملا مفيدا . ولكنهم لا يجبرون المريض على الموت اجبارا بل يقنعونه به حتى يستل روحه بيده او يسمح لغيره ان يفعل ذلك وهو غارق فى نعاسه .. اما من يقتل نفسه دون ان ياذن له القساوسة ورجال الدولة ،

فهو لا يستحق منهم دفنا اواحراقا ، ولذا تراهم يلقون جسده في مستنقع كريه .

اما الزواج فلا يؤذن للمراة به قبل الثامنة عشرة وللرجل قبل الثانية والعشرين . والزواج متى تم عقده بين الزوجين لا ينفصم الا بالموت او الزنا او بان يسلك احد الزوجين نسلوكا غير محتمل وهم لايجيزون قط ان يطلق الزوج زوجته لان مرضا اصابها اذ يرونها قسوة وحشية ان تهجر انسانة في وقت هي فيه احوج ماتكون للمعونة والسلوى

ويجوز الطلاق ان اراد الزوجان ذلك ، مادام كل منهما قد وفق الى شريك اصلح من شريكه الراهن ، على ان يعرض مثل هذا الامر على مجلس الشورى .

واهل يوتوبيا قد تواضعوا على ازدراء المراة التي تحتقر الجمال الطبيعي فتقلده بالاصباغ والوان الطلاء ، وقد علمتهم التجربة ان حب الزوج لزوجه لايتوقف على خلابة الوجه بقدر توقفه على الشرف والفضيلة فان كان الجمال يبعث على الحب بادىء ذي بدء فلاشك في ان فضيلة المراة وطاعتها لزوجها هما اللذان يعملان على بقاء الحب ودوامه . وهم لايردعون ابناءهم عن فعل الرذيلة بالعقاب ، ولكنهم يحببونهم في الفضيلة بالجزاء والثواب ، وهم فوق ذلك يقيمون في ساحة السوق تماثيل العظماء الذين احسنوا للدولة صنيعا حتى يمثلوا في ذاكرة الناشئين ويحفزوهم الى خدمة بلادهم واصطناع الفضيلة فيما يفعلون .

المحبة والاحترام يسودان معاملة الناس بعضهم لبعض ، ولافضل لرئيس على مرءوس فلا زهو ولا كبرياء . ولا يتميز اميرهم بلبس الحرير او الذهب ، بل شارة الملك عندهم سنبلة قمح يحملها رجل امام الملك . وقوانينهم قليلة العدد جدا ،



عقاب المجرم حلقة من الذهب يخـزم بها انفـــه .

لان شـــعبا بلغ مابلغـه اهـل يوتوبيــــا من التقدم لايحتــاج ســــوى قليــــل من مــوادالقانون . وهم يعيبون على سائر الشعوب أن تطنب في قوانينهـا وتطيل حتى تمـلأ بها المجلدات الضخام التي لايجدافرادالشعبمن فراغهم وقتا لطالعتها ، وان هم طالعوهـا الفوهـا اعمق من متناول افهامهم واغمض ..وهم لايجيزون ان يلجأ احد الى محام يدافع عنه امام القضاء ، فـكل امرىء هنالك يحفظ القانون ،ويدافع عن نفسـه .

وهم لايؤمنون بالمعاهدات بين امةوامة ، اذ يعتقدون ان الانسان بطبعه محب لاخيه الانسان ،وان لم يكن كذلك فلن تجدى كلمات مكتوبة نفعا فى تعليمه ذلك الحب

الحرب

واهل يوتوبيا يمقتون الحرب مقتـا شـديدا ، لانها نكسـة بالانسانية الى حيـث الهمجـية المتوحشة ، وهم لا يعدون النصر فى الحروب من ضروب النصر ..ولكنهم على الرغم من ذلك يدربون ابناءهم جميعا ، رجالا ونساء ،على المقاتلة كى يخفـوا الى صد العدو ان هاجمهـم عـدو ، او يدرأوا عن اصدقائهم الخطر ان دهمهم خطر ، او يحرروا شعبا ارهقه الذل والاستعبـاد لانهـم يطمعون ان يكونوا حماة الحرية والاخاء

وتراهم مع ذلك يكرهون ان يدحروا اعداءهم بســفك الدماء ان افلحت وسـيلة غـير ذلك ،وهم يعدون اكبر النصر وادعاه الى الفخر ان يردوا كيدالمهاجمين بالحيلة والخداع والذكاء والدهاء ، فان وفقوا فى ذلك رأيتهم يقيمون انصـاب النصـر فى كـل مكان ويفرحـون ويمرحـون ، لانهـم يؤمنون بان نصر الذكاء وحده هو الجدير بالانسان ، واما ضرب الجسد للجسد والفتـك واراقة

الدماء وازهاق النفوس فتلك وسيلة فى مستطاع الاسود والذئاب والكلاب وكل ذى ظفر وناب

الدين

فى ارض يوتوبيا ضروب متنوعة من العبادات والعقائد ، فمنهم من يعبد الشمس ومنهم من يؤله القمر ، وهكذا الى آخر ما تسمع به من الوان الدين ... ولكن هؤلاء مجموعات قليلة العدد ، واما الكثرة الغالبة هنالك فتعتقد فى اله قوى قادر ابدى خالد ، واليه ينسبون الخلق ومايصيب الاشياء والاحياء من تغير وتفكك وانحلال . ويظهر ان ضروب الديانات الاخرى آخذة فى التقلص امام هذه الاخيرة لانها تبدو لهم اقرب الى المعقول ... وما كدت اقص عليهم نبأ الديانة المسيحية فى ارضنا حتى اقبلوا على اعتناقها زرافات وافواجا ، لماذا ؟ ... لانها تبشر بمذهب الشيوعية التى تمحو فوارق المال بين الرجال

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد ان رجلا منهم اخذته الحماسة فى اعتناق المسيحية حتى انطلق يهجو سائر الديانات ، فانزلت به الدولة عقابا صارما ولم تلبث ان ابعدته عن ارضها ، لانه يثير فى الناس الفتنة الدينية ، وليس اشد من الفتنة عندهم شناعة واجراما . هم يبيحون لكل انسان ان يعتنق مايشاء من العقائد ، وان يبشر الناس بمذهبه مااستطاع ، على شريطة ان يكون ذلك فى غير اعتداء على سواه ... ولعل ذلك اول قانون سنه لهم مؤسس الجزيرة الملك يوتوبس حين اقبل على تلك البلاد فوجدها ممزقة بالخلاف الدينى ، بل ان ذلك الخلاف نفسه هو الذى مهد له النصر والغلب ، فشرع لهم الحرية فى

الدين . فان لم يستطع الرجل ان يقنع غيره بالقول والحجة ، فلا يجوز له قطعا ان يلجأ الى القوة والارهاب .

وليس بين اهل يوتوبيا من يخصص نفسه للدراسة الدين كى يجعل الدين مهنة وصنعة ، اذ الشائع عندهم ان السعادة فى الدار الاخرة مرهونة بشىء واحد : وذلك ان تنفق هذه الحياة الدنيا فى عمل مثمر منتج

والايام المقدسة عندهم اول كل شهر وآخره ... واما الكنائس فجميلة البناء رائعة المنظر ، فسيحة الارجاء تسع عددا كبيرا فى وقت واحد ، وهى معتمة بعض الشىء فى داخلها لانهم يرون ان شدة الضوء توزع الانتباه ، وهم حريصون على ان يركز المصلون انتباههم فى صلاتهم

والكنائس اعدت بحيث تلائم العقائد على اختلافها ، فليس فيها شارات لدين بعينه ، ولذا فالناس جميعا يحتشدون فى بيوت الله جنبا الى جنب وان اختلف الاله المعبود ، كل يصلى لربه ، وذلك ليؤاخوا بين العقائد ما امكن ذلك

وهم يذهبون الى بيوت الله فى آخر الشهر ليرفعوا الحمد لله على ان انقضى شهرهم بخير ، وفى اول الشهر ليدعوا الله ان يغمرهم ببركته فى شهرهم المقبل

ولا يجيز اهل يوتوبيا ذبح الذبائح لانهم يعتقدون ان رحمة الله اوسع من ان يستنزلها سفك دماء الحيوان الذى ماخلقه الله الا ليحيا

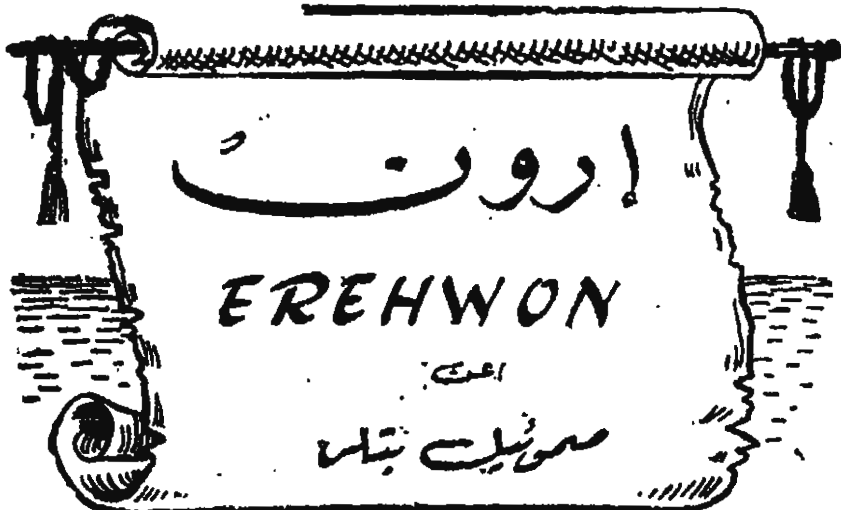
تلك هى يوتوبيا - الدولة المثلى - التى اشاعت كل شىء بين الناس جميعا ، فلا تعرف ما الفقر وما معناه . ان احدا منهم لايملك لنفسه شيئا ، ومع ذلك فكل الناس اغنياء . ولم لايكون غنيا من لايعنيه امر معاشه فى غده ومن لايؤرقه هم ابنائه وبناته خشية ان يصيبهم الفقر والتشريد بعد موته ؟

من ذا يجرؤ ان يدعي بان بلادنا تعرف العدل بمعناه الصحيح ؟ من ذا يزعم ان العدل يسود بيننا وهو يرى تحت انفه ان الاغنياء لايعملون شيئا ، او قل لايعملون عملا مفيدا لانفسهم او لامتهم ؟ فاى عدل يجيز ان يستمتع هؤلاء بالمال الوفير ، بينما العمال من زراع وصناع ، الذين يكدحون كدحا مضنيا ، والذين لولاهم لما قامت للدولة قائمة ، يعيشون فى ذل وبؤس وفقر ، انهم يعيشون فى بؤس لايعرفه الحيوان الاعجم ، لان الحيوان لا يعمل طوال يومه ، ولان الحيوان لايضنيه التفكير فى غده ، كما يشقى العامل الفقير المسكين حين يفكر فى سن الشيخوخة ويسائل نفسه : ماذا انا صانع فى شيخوختى التى ستعجزنى عن العمل فلا اجد ما اقتات به ؟ ان اجور هؤلاء العمال لاتكاد تكفى سد الرمق فى حاضرهم ، فكيف بهم فى مستقبلهم ؟

اليست بلادنا قاسية ظالمة حين تكيل المال كيلا للسادة الذين لايعملون شيئا ، ثم تغل يدها الى عنقها حين تؤجر الحارث والصانع والعامل الذين لا دولة بغيرهم ؟ فان تقدمت بهؤلاء السن ، وعجزوا عن كسب القوت ، نسيت الدولة ماقدموه لها فى سن الشباب من خدمات ، وتركتهم يتضورون جوعا ومرضا ، ويموتون هملا لايابه لهم انسان

الا ما ابعد الشقة بيننا وبين اهل المدينة الفاضلة الذين اقتلعوا المال من جذوره ، فانمحت اسباب الشقاء والفقر

فلما اكمل روفائيل قصته عن ذلك البلد السعيد ، كان الوقت قد حان للعشاء ، فاصطحبته الى المائدة ، وتواعدنا ان نتلاقى مرة اخرى لنبحث فى تلك النظم التى روى لنا نبأها ، والتى لااوافق على بعضها ، ولكنى لااجد لنا محيصا عن بعضها الاخر ان اردنا ان نحيا حياة هانئة سعيدة



نبذة عن حياة صموئيل بتلر

ولد بتلر عام ١٨٣٥ من اسرة دينية فى انجلترا ، وتلقى علومه فى كامبردج . وقصد أولو أمره أن ينخرط فى سلك رجال الدين ، ولكنه آثر لنفسه رعى الاغنام وتربيتها فى زيلنده الجديدة ، وقد عاد الى انجلترا عام ١٨٦٤ حيث أخذ يكتب المقالات الفكاهية يتهكم بها على نظرية داروين التى درسها دراسة دقيقة وهذا الكتاب الذى نحن بصدده حلقة من سلسلة تهكمه المرير الذى أخذ يصبه على نظام المجتمع تارة وعلى رجال الدين طوراً ، وعلى العلم وأصحابه طوراً ثالثاً ... وسترى أنه نقد للنظام القائم فى خيال خصب عجيب يستوقف النظر ويستثير التفكير والتأمل فى كل موضع من مواضعه ، فهو نقد لما هو كائن أكثر منه بناء لما يجب أن يكون .

ومن أوضح معالم الكتاب ، التى نحب أن نثبتها قبل قراءة خلاصته ، لتعين القارىء على جودة الفهم ، أنه يعرض نظاما عجيبا يخيل عند قراءته أنه نظام مضحك أحمق ، ولكنك اذا أمعنت فى النظر ، وجدت النظام المشروح هو نظامنا القائم بعينه ، وتلك لعمرى أفعل وسائل النقد .

وهو ينادى فى هذا الكتاب بوجوب الاعتدال فى استسلام الناس لاحكام العقل ، واستماعهم الى صوت الغريزة والبصيرة الفطرية ، فانكارهما انكار لطبيعة الانسان وقوام وجوده ، وهما نتيجة سلسلة متصلة من التجارب

---

(١) هذه الكلمة قلب لكلمة Nowhere ومعناها « البلد الذى لا وجود له » ، وتلك مبالغة من الكاتب فى أنه سيصف بلاداً لا وجود لها

الصحيحه .. فهو حين يتناول لغز الحياة بالتحليل والتعليل ، تراه ينزع منزع الفلاسفة المثاليين وينكر الفلسفة المادية انكارا قاطعا . فالتطور — مثلا — في رأيه صحيح ولكن على شرط أن يفهم كما فهمه برجسون من أن هناك قوة خفية تسعى للوصول الى غرض معين ، وتلك القوة الخفية هي الحياة نفسها ، لا كما فهمه دارون من أنه خاضع للانتخاب الطبيعي الذى يقوم على المصادفة الاليه وحدها ، تلك المصادفة التى لاتعرف غرضا سوى صلاحية البقاء

ومما اخذ يبشر به بتلر منذ شبابه ان يأخذ الناس بديانة عقلية ، وستراه في ارون يصب مر السخرية على رجال الدين حين يصورهم وكأنهم قلبوا الكنائس الى مصارف يتعاملون فيها كما يتعامل أصحاب الاعمال في البنوك ، غير ان الصكوك في مصارف الكنائس صكوك تدر الربح في الحياة الاخرة . وهو يرى ان اساس الدين واه ضعيف ، ولذا لجأ الى التشاؤم والجبن وسهولة التصديق ... نعم ان بتلر لايريد أن يسود العقل الصرف في الدين بل يحب أن يمازجه شيء من التصوف الى جانب شيء من الاوهام التى تبعث في النفس مشرق الامل دون ان تعود على الانسان بالضرر ، ولكنه يحتم أن ينبع ذلك التصوف وهذا الوهم من باطن النفس والا يفرض عليها فرضا

وستراه في هذا الكتاب يمزج التفاؤل بالتشاؤم حتى يخفف احدهما من حدة الاخر ، فهو متشائم حين يعرض هذه الفكرة الخيالية البديعة التى يقول فيها ان الاجنة قبل مجيئهم الى هذا العالم كانوا يعيشون في عالم الخلود ، ولكن الغفلة الحمقاء اثارت في بعضهم رغبة المجيء الى دنيانا فراحوا يوسوسون للزوج أن يلاقي زوجه ، مع ان الاحياء يمقتون الحياة ولا يحبون دوامها وتكرارها لولا هذا الاحراج ممن لم يولدوا بعد .. فانت تقرأ بتلر في هذا فيخيل اليك أن شوبنهور يتحدث من جديد ، .. ولكن بتلر يعود فينثر لمحات من التفاؤل حين يقول ان الحياة خير ، لو وفق الانسان بين نفسه وبين الطبيعة ، وهو يستطيع ذلك ان أراد .

ومن امتع فصول الكتاب ماقاله في الالات ، وانه يخشى ان يجيء عصر تطغى فيه الالة على الانسان فتصبح سيدة له وهو عبد لها ، واحب ان يقرأ القارىء هذا الفصل على أنه تهكم لاذع لنظرية دارون فسيرى كيف يطبق بتلر أصول نظرية دارون في التطور على الالات فلا يرى مستحيلا ان تتطور الالة وتسبق الانسان في تنازع البقاء كما سبق الانسان صنوف الحيوان وهو بذلك يريد أن يؤيد وجهة نظره بان اساس التطور محاولة الوصول الى غاية معينة مقصودة وليس الصدفة البحتة كما قال دارون

وسيقرأ القارىء في هذا الكتاب ان أهل ارون يحاكمون المريض لانه مريض

اذ يعتقدون ان المريض مسـئول عن علته ، وسيضحك القارىء ملء شدقيه ولكنه اذا تدبر الامر قليلا علم ان ذلك هو سبيلنا نحن فى محاكمة المجرمين ، فالمجرم مريض جاء اجرامه نتيجة عوامل البيئة والوراثة وهو لا يسأل عن اجرامه الا بقدر ما يحاسب العليل على علته

واعود فاكرر ان يتنبه القارىء لروح التهكم فى ارون ، والا طوى الكتـاب وكأنه لم يقرأ شيئا

اروت EREHWON

الماشية فأكون من ذوى الثراء ، ولكنى لم اظفر ببغيتى وان كنت قد شاهدت فى رحلتى عجبـا سأرويه للنـاس ، وسأرويه كارها لانى اكاد اوقن ان لن يصدق الناس ما اقـول الا اذا رويت القصة كاملة ، وانا مضطـر الا ارويهـا كاملة ، لانى احب ان اخفى معالم الأرض المكشـوفة حتى لا يسبقنى اليها احد من اصحاب المال ، وليكن عزائى ان الصدق يحمل فى طيه طابعا يدل عليه ، ومهما يكن من امر هـذه القصة فهى تحمل دلائل صدقها

بلغت غايتى المنشودة فى اواخر سنة ١٨٦٨ ، فوجدتها بلدا لم يفتح ابوابه بعد للبسل المغامرين ، ولا يزال يسكنه عدد قليل من الهمج ، يحتشدون فيه عـلى شاطىء البحر . ولكن فئة من المهاجرين الاوروبيين اهتدت فى جواره الى قطعة من ذلك الساحل يبلغ طولها ثمانمائة ميل ، وتعمق فى داخل اليابس الى نحو ثلاثمائة ميل يحدها جبل شامخ ينهض على صـدر السهل المعشوشب وتتوج ذراه الثلوج الدائمة .. وقد استغل جمـاعة الاوروبيين ذلك السـهل الخصيب المـمرع فاخـذوا يرعون به الماشية ، وانتشروا فى بقاعه حتى امتلأت بهم ارجاؤه .. وفى هذا السهل حططت رحالى عامـلا فى كنف واحد من أولئك الرعاة ، وقـد بلغت من العمـر اذ ذاك اثنـين وعشرين عاما

كان منوطا بى ان اصعد مع الصباح الى شرف من الجبـل لالحظ السائمة فلا تتبعثـر فى شعاب الجبل ، ولم تكن تكلفنى



انني بازاء حلقة من اشباح جبارة تشق برءوسها استار السحاب

تلك الحراسة سوى ان اجلس وادور بعينى الحين بعد الحين فتكفينى نظرة واحدة سريعة لاعلم ان ماشيتى هنالك لم يصبها اذى ، وكنت اظل فى مستقرى ذاك مزودا بما يلزمنى

غادرت ارض الوطن لعلى اصادف بلادا خصيبة ارعى فيها من الخبز واللحم والتبغ ، فلا اهبط الا مع المساء

كانت حياتى تجرى على نسق واحد يوما بعد يوم ، ولكنها حياة تبعث الصحة والنشاط ، وماذا يعنيك من الدنيا لو كنت معافى صحيح الجسد ؟ .. فكم جلست فى ذرولى ارسل البصر الى وهاد الارض ونجادها ، وقد بدا لى السهل المخضر فى الافق النائى مبسوطا حتى ينتهى الى نهر يتالق بريقه حين ينساب فى سندس النجيل ، وقد شمخت على ضفته البعيدة سلسلة نائتة تضرب فى اجواز السماء ، فتارة تبدو العين ناصعة البياض تلفها سماء سوداء ، وطورا تراها داكنة السواد تشق بقننها سماء بيضاء . ولعل اروع ماوقع عليه البصر منظر السحاب من دونى .. حين كنت امعن فى الصعود فكنت ارى قزعة تموج كانها اوازى المحيط جزره قمم الجبال الناتئة

ترى ماذا وراء ذلك الجبل السامق ؟ وماذا ان اخذت زادى وضربت فى الارض لاستكشف ماوراء الجبل ؟ انى لو فعلت لكان نصرا مابعده نصر

وقد عن لى ان اسال رجلا من اهل الاقليم عما يعلمه عن الجبل الذى اعتزمت عبوره اذ تمنيت ان يصحبنى فى رحلتى - فما هو الا ان اعترته رعدة الخوف ، ونهض من فوره يدحرج كيسين من اكياس الصوف كانا الى جواره ، واعتلاهما وتلفع بكيس فارغ وجلس جلسة تبعث الرعب والفزع ، يضغط على اسنانه ويكشر عن انيابه ويخرج انغاما موسيقية عجيبة من فمه ، ثم هبط الى الارض يرتعد ويرتعش ويشير باصبعه الى الجبل

ولكن فزعه من الجبل لم يصدنى عن الرغبة فى عبوره ، بل ازددت الى ذلك شوقا وحماسة ، واشتدت رغبتى فى اصطحاب ذلك الرجل ، فعرضت عليه ان يرافقنى فى رحلة قصيرة الى شاطىء النهر ، ولم اذكر له الجبل الذى يثير فى نفسه ذلك الرعب المخيف .. وقبل الرجل ، فاعددنا جوادا مسرجا وبعض الفراش والغطاء ، وما قد احتاجه من مؤونة وزاد ..

مضى اليوم الاول فى طمانينة ويسر ، وصادفنا فى بعض الطريق الوانا من جمال الطبيعة لو حاولت تصويرها لخانتنى اللغة التى لم تخلق لمثل هذا الجمال الفاتن ! .. وجاء المساء وضربنا الخيمة ومهدنا الفراش ببعض العشب الوثير .. وصحوت فى جنح الليل فاذا المنظر يخلب الافئدة والسكون من حولى ممتع لذيذ ، والنجوم تتالق فى صفحة السماء والقمر يسطع ناصعا على ثلوج الجبل .. واحسست براحة العقل والجسد راحة لا يعرفهما الا من انفق بضع ليال فى طلق الهواء ...

صحونا فى صباح اليوم الثانى واستانفنا الرحيل . فكان هذه المرة شاقا عسيرا ، حتى بلغنا الخانق الضيق الذى يتدفق منه النهر ، ولكن النصب قد هد اجسادنا ، واخذ المطر ينهمر مدرارا ، والسحاب الكثيف يلفنا فى اطوائه .. وهكذا انفقنا سبعة ايام فى صعود وهبوط وهبوط وصعود ، حتى ادركنا آخر الامر سفحا جميلا سهلا يهون فيه السير وينعم برؤيته النظر ، وهو سفح الجبل المنشود ، فاخذت اعلو نحو القمة وقد شاع السرور فى نفسى ... ولكنى كم دهشت حين ادرت وجهى لارى رفيقى فوجدته قد عاد مسرعا ، لان الجبل قد اثار فى نفسه كوامن الفزع ... وخلفنى وحيدا

ماذا انا صانع فى هذا الموقف الرهيب ؟ ! اعود والنصر قد بات منى قاب قوسين او ادنى ؟ ام اجاهد لادرك غايتى على ما فى ذلك من خطر داهم . وعسر شديد ؟ لا ! لابد ان امضى حتى

ابلغ ما اريد الا ان صادفنى فى الطريق من الصعب مالا قبل لى وحدى به ، عندئذ فقط اعود مضطرا آسفا .. الا ما اشد العزلة على النفس ! ان كل شيء يبعث الخوف والوجل ، بل ان نغمات الطيور تبدلت الى صيحات مرعبة .. وما احلى دقات ساعتى حينئذ ! انها وحدها تذكرنى انى انسان من بنى الانسان ..

اقبل المساء فاخذت فى النعاس ، ولكنى استيقظت فى جوف الليل فسمعت صوتا موسيقيا عجيبا .. ماذا ؟ انه يماثل الصوت الذى كان ينبعث من رفيقى حين جلس على اكياس الصوف .. وما هى الا آن فنى الصوت فحمدت الله واستأنفت النعاس

اشتدت الوحشة وثقل الهواء ويبست الارض ، واعترانى شعور عجيب ، وهو انى فقدت شخصيتى ، اعنى ان ماضى حياتى قد تفككت عراه التى تربطه بحاضرى ، ولعل هذا الشعور اول علائم الشرود الفكرى الذى يصيب من يضلون الطريق .. واخذت اجاهد واكابد عناء السير ، حتى شهدت على صفحة الثلج آثارا لاقدام كادت تذوب وتنمحى فأحسست مزيجا من شعور الغبطة وشعور الخوف ، ومضيت فى طريقى اتحسس وقع القدم فى حذر شديد لان الضباب الكثيف قد اعتم امامى الطريق .. ما هذا الذى ارى وسط الضباب ؟ اننى بازاء حلقة من اشباح جبارة قائمة تشق برءوسها استار السحب المسدلة ! فلم اكذب عينى هؤلاء الشخوص المروعة حتى تولتنى قشعريرة عنيفة لم ادر معها شيئا مما حولى ، ولعل اغماءة قد غشيتنى لحظة ، ثم افقت مرتعدا فاذا بى ملقى

الى جانب هذه الجماعة من الشخوص الساكنة الصامتة .
شاءت رحمة الله أن يمر بذهني خاطر عجيب ، وهو أن اعد من واحد الى خمسين ، محدقا بنظرى الى تلك الاشباح ، فان لم يتحرك احدها رجحت أن تكون مجموعه من التماثيل .
وعددت ما اردت مرتين فلم ألمح فيها حركة ، فتقدمت فى فزع المسها من اطرافها الاثق مما رجحت حتى انقلب ظنى يقينا وازيح عن صدرى ذلك الكابوس المخيف . انها مجموعة من التماثيل صفت وقد اجلست على سور من الصخر جلسة تماثل الجلسة التى اصطنعها رفيقى على أكياس الصوف ، وعلى وجوهها نفس الملامح البشعة التى كان قد مثلها الرجل فى جلسته .. وما هى الا ان هبت موجة من الريح العاصف ، فلشد ما دهشت حين وجدت الريح فى تخللها رءوس الاشباح ، الخاوية تعوى كأنها الذئاب او تئن انينا مروعا ، فلا تسل كم خارت قواى عندئذ ، ولكنى رغم ذلك انطلقت اعدو فى اطباق الضباب المنشور ، حتى غابت الشخوص عن البصر .

بلغت خانقا فى الجبل نفذت خلاله الى السفح فاسرعت هابطا ولكن الفزع مايزال يشيع فى نفسى وترتعد له فرائصى ، ترى هل اقبل على قوم همج يذبحوننى ضحية لاربابهم تلك ؟ .. لا ! انى ارى هنالك جسرا والهمج لا يبنون الجسور ، فلا شك انى قادم على قوم اخذوا من المدنية بقسط موفور .. طفقت اهبط سفح الجبل ، ولم تلبث شمس الاصيل أن سطعت بالدفء والنور ، فما احلاه من دفء وما اجلاه من نور بعد الذى قاسيت من برد وعانيت من ضباب وسحاب !

هأنذا ارى سهلا مريعا قد انتشرت فيه المدائن وازدحمت فيه المبانى ذات المآذن والقباب ، فاستبشرت خيرا واستلقيت فى فىء شجرة — وكان قد هدنى اللغوب — فغرقت فى نعاس عميق أيقظتنى منه اجراس ترن ، فشخصت بناظرى واذا بى ارى فتاتين جميلتين كانتا سائرتين ، ولم تكدا تريانني حتى تولاهما

الدهش ، واخذتا تحدقان فى تارة وفى بعضهما تارة اخـرى ، ثم صرختا صرخة عاليـة وتولاهما فزع وخوف فانطلقتا تعدوان ، ولم تمض مسـافة حتى عادت الفتاتان ومعهما شرذمة قليلة من الرجال ..

واول ما استرعى منى النظر هذا الجمال الفاتن فى النســاء والرجال على السواء ! .. رأيتهم فنهضـت أتوكأ عـلى عصـاى ووجهت خطابا بالانجليزيـة الى أحدهم - وان كنت موقنا أنه لم يفهم عنى شيئا - فقلت اننى لا ادرى ما هذا البلد الذى ادركته بالمصادفة بعد رحلة مليئة بالعسر والخطر ، واننى طامع فى رحمتهم وعفوهم . فأشار الى ان رجـل ان اتبعهم ففعلت .

ولم تمض بضع دقائق حتى بلغنا قرية صـغيرة ازدحمت دورها وضاقت طرقها ، فكم اثار قدومى فى القوم من دهشـة ، ولكنها دهشة تمازجها الرقـة والخلق الكريم ، فاكرموا مثواى وقدموا لى العشاء لحما ولبنـا وبلغت منهم الدهشة أشـدها حين رأونى ادخن الغليون واقدح الكبـريت .. أما انا فقـد احسست نحوهم باعجاب واكبار لما لمسته فيهم من هدوء فى الطبع وكمال فى الخلق ، واستوقف نظرى ان اراهم يأكلـون على النمط الاوروبى مع اختلاف فى ادوات الاكل وحدها ، وان تأثيث الغرفة يجرى على اسـلوب انجليزى محض . فسـاءلت نفسى : ترى من يكون هـؤلاء القوم ؟ ايكونون هم قبائـل اسرائيل التائهة ، لايزالون احياء فى هذه الارض المجهولة يرقبون العودة الى فلسطين ؟ ولكنى لم ألمح فيهم أثرا للدين ، فلمعت فى رأسى فكرة قوية أهديهم الى الـدين القويم فأنعم بالـدارين وأكون من الاولياء الصالحين ؟

أكلت طعام الافطار فى صبيحة اليوم التالى ، ثم اشار الى بعض القوم فتبعتهم فى رحـلة لست أعلم مداها ، فشققنا طريقنـا فى الجبال المثلوجة تارة وفى جوف الغابات طورا وعلى السـهول البسيطه مرة ، ونمر بالقـرى الحين بعد الحـين .. ولم أزل

معجبا اشد الاعجاب بهذا الجمال الفاتن الخارق الذى يمتاز به اهل ذلك الاقليم، فالنساء اصحاء اشداء رافعات الرءوس ناهدات الصدور يشع منهن الجمال والجلال ، وللرجال روعة وفخامة تأخذان باللب والبصر ، قد اجتمع فى أجسادهم الجمال المصرى الى الجمال اليونانى والايطالى ، واطفالهم يمتلئون صحة ونشاطا ، ولا تقع العين من اقصى الارض الى اقصاها على انسان قذر يمجه النظر ..

وانتهى بنا المطاف الى مدينة كبيرة ، حيث امر القاضى أن أوضع فى حجرة وجدت بها رجلين بدت عليهما علائم المرض ، فكانا أول من شاهدت فيهما هزال العلة بين أولئك القوم .. وان هى الا فترة قصيرة استدعى بعدها المريضان واستدعيت فى اثرهما ، وكان ذلك لفحص طبى دقيق قام به طبيبان . ثم امر القاضى ان تفرغ جيوبى مما بها ، ولم يكد الباحث يخرج ساعتى حتى أخذ الحضور شعور الامتعاض والاستياء لسبب لم ادره الا ذاك . نعم ادهشنى فزع القاضى من هذه الاله العجيبه يحملها رجل متمدين ، فظننته بادىء الامر فزعا لجهله بأمرها ولكنى سرعان ما تبينت انه كارة مافت لا يرى مبررا أن يستعين الانسان بآلة كائنة ما كانت ، وامرنى الرئيس على الفور أن أتبعه الى حجرة شهدت بها عجبا عاجباً ، شهدت بها صناديق القيت فيها اجزاء من آلات محطمة ، واشار الرئيس الى صندوق امتلأ بساعات بالية وامرنى أن اقذف بساعتى بين تلك الاشلاء .. ولم البث قليلا حتى جاء من ساقنى فالقى بى فى حجرة من بناء قريب ، عرفت فيما بعد أنه السجن .

احسست بالحزن والقلق والوحشة . وشاقنى ما شهدت الى تعرف عادات القوم ، فما معنى تلك الغرفة التى امتلأت بآلات محطمة ، وماذا يغضب الرئيس ان يجدنى أحمل ساعة تنفعنى ولا تضره ؟ ولكنى فكرت قليلا فتذكرت انى لم اصادف عند القوم آلة يستخدمونها فى حياتهم . ان القوم لم يكونوا من

السلاجة بهذا القدر ، بل انهم يحيطون علما بكل مابلغته المدنية الحديثة من مخترعات . فكيف اعلل علمهم بأسباب المدنية كلها مع احجامهم بل اضطهادهم لثمرات المدنيه وزاد فى حيرتى ان علمت انهم كانوا قد اصطنعوا فى حياتهم منذ قرون كل مانصطنعه اليوم فى اوربا من اختراع ، وانهم عادوا فنبذوا كل ذلك نبذ النواة !

كنت افكر فى ذلك حين جاء الى غرفتى رجل قيل انه معلم ارسله أولو الامر ليعلمنى لغة البلاد ، فاغتبطت لذلك : اولا لاعلم لغة البلاد فتقل وحشتي وثانيا لانى استخلصت من ذلك ان الدولة لا تضمر لى السوء .

وما كنت أطلق لسانى فى لغتهم بعض الشيء حتى اخذت استفسر من السجان وابنته - وكثيرا ما كانت تفد الى غرفتى - عما صادفت من مشكلات لم افهمها فعلمت أن ساعتى هى سبب نكبتى ، وان من يحمل آلة عند اولئك القوم لا يقل خطرا عمن يحمل حمى التيفوس .

ومن اعجب ما اثار دهشتى انى شعرت يوما بمرض خفيف ، فلما اقبلت ابنة السجان تحمل الى طعام الافطار انباتها بعلتى ، وكنت اطمع منها فى عطف ومواساة ، ولكنى لشدما دهشت حين رايت الفتاة ثائرة غاضبة

ثم قالت : لولا انى اشفق عليك لانبات ابى بهذا الجرم الشنيع . فسالتها اى جرم اتيت ، فان كنت قد اخطات فعن جهل لا عن عمد . فنظرت الى نظرة المبهوت واجابت : ان المرض فى ارض ارون جريمة لاتغتفر ، واعتداء على القانون لاتجد الرحمة اليه سبيلا فلو بلغت شانك الى ذوى السلطان لقدموك على الفور الى محكمة تقاضيك وتلقى بك فى سجن كريه أمدا يطول او يقصر باختلاف المرض الذى اصبت به .. فوقع حديثها ذاك من نفسى موقع الدهشة والعجب .

ولقد فسرت لى هذه الحادثة كثيرا مما لم أفهمه . فالمريضان



يعاقب المريض بالسجن ويرسل المجرم الى المستشفى للعـــلاج

اللذان رأيتهما امام القاضي [illegible] يقفان موقف المتهم بجريمة المرض ، وقد حكم عليهما القاضي بالسجن والشغل الشاق .

مضى شهر – وكنت قـــد القنت كثيرا من لغة الحديث – فجاء السجان والمعلم ينبانني لن اولى الامر قد اجازوا ان يطلق سراحي ، مادمت قد نقهت هذه الايام صحيح البـدن . على ان اقصد من فوري الى العاصمـــة لبراني ملك البلاد وملكتها ، ولان تاجرا في العاصمة سمع بامري فارسل يدعوني في ضيافته .

وقد جرى بيني وبين معلمي حديث أنباته فيه باني رجل فقير، فاجابني بان الفقر في بـلادهم جريمـــة كبرى ، وانه يعلم انني فقير وان محكمه تألفت بالفعـل لتنظر في امر عقوبتي من اجـل فقري لولا ان الملكة توسلت الى الملك في العفو عني لانهـــا كانت تحب أن تراني حين علمت انلي بشرة شقراء وعينين زرقاوين .

استيقظت في صباح اليـــوم التالي وغادرت غرفـــة السجن لاركب عربة كانت تنتظـرني في الطريق لتحملني الى عاصمـــة البلاد ، ولن اقص على القـــارىء تفصيل هذه الرحلة الشاقة ،غير اني اعيد القـــول في النظافة والجمـــال اللذين شـــهدتهما اينمـــا حللت ، فـــلم تقـــع عيناي الا على اجسام صحيحة جميلة رشيقة .. وقد أتيح لي اثنـــاء الطـــريق ان اتحـــدث الى بعـــض المتخـــرجين في جامعـــاتهم ، فسألتهم عن طائفة مما شهدته وبخاصة عما قصدوا اليه من اقامة التماثيل المخيفة في الطريق المؤدية الى بلادهم ، فانبأوني بانها اقيمت هنالك في عصر سحيق في القـــدم ، وان تقاليدهم كانت تفرض أن يؤخذ أقبح من يرونه خلقة واضـــعف المرضى بنية ، فيذبحونهما ضحية لتلك التماثيل ، وذلك لحفـــز أهل اروين على نشدان الصحة والجمال ، ولكنهم الان يحمدون الله ان بلغوا حدا بعيدا جدا من الصحة الموفورة والجمال الرائع فلم يعـــودوا يذبحـــون ما كانوا يذبحون من ضحايا .

وســـألتهم عن متحف الالات القديمة ، وعن علة تدهور الفنون

والعلوم والمخترعات فى بلادهم ، فاجابونى بانهم منذ اربعة قرون كانوا قد بلغوا ما بلغتــه اوروبا اليوم من التقدم الآلى ، بل كانوا قد جاوزوا ما بلغتــه أوروبا فى كثير من الصناعات ، ولكن حدث ان استاذا عظيما اخرج كتــابا بلوعا يلفت النظر (وسياتى ذكره فيما بعد) وقد أقام فيه الدليل القاطع على استخدام الآلات لابد منته الى تدمير الانسانية وتحطيمها وقد بلغ الاستاذ من قوة الحجة فى هذا الكتاب أن تبعته الامــة باسرها ، واخذوا يمحــون من ارضهم ما بها من آلات ، وحرمت قوانينهم ان يدخل انســان اى اصــلاح على آلة من الآلات ، وبدءوا ينظرون الى من يحمل آلة معه كن يحمل وباء معــديا ينبغى ان يقاوم وينبذ .

ادركنا العاصمة فألفيتهــا مدينة جميلة تزدان بالاشــجار والازهار ، واسترعى نظرى مرة اخرى ماشاهدته فى اهلها من جمال جذاب وخلق حلو كريم .. وقد استقبلنى فيمن استقبلونى ذلك التاجر الذى دعانى لضيافتــه ، واخــذنى الى داره حيث زوجه وابنتــاه ، ولم تمض ســاعة حتى أقبل علينا رجل نحيل ذو لحية ســوداء ، فاصطحب رب الدار الى غرفة مجاورة لنا ، ولم البث حتى سمعت مضيفى يئن ويبكى ، فأخذتنى الدهشــة والعجب ، ولــكن الزوجــة والفتاتين شرحن لى الامر ، فقلن ان ذلك الزائر القادم هو طبيب الاخلاق الذى يقوم من اعــوج خلقه ، واخذن يبسطن لى بعض عاداتهم السائدة مما ســاتناوله بالشرح فيما بعد ..

فهم يرون أنه اذا اصــابت احدهم علة فى جسده قبــل أن يبلغ السبعين ، فجزاؤه المحاكمة وازدراء الناس ، وان توقــع عليه عقوبة تقسو أو تهون حسب اشتداد المرض او خفتــه . اما ان ارتكب احدهم التزوير او احرق منزلا او سرق شيئا او مايشبه هذا ، فليس ذلك عندهم اجراما ولكنه نقص خلقى يحتــاج الى علاج فى مستشفيات الدولة او فى داره ان كــان يســتطيع الانفاق . وهنالك طبقــة من الاطباء يسمون « بالمقومــين »

وظيفتهم اصلاح الخلق السقيم. وقد اتقن هؤلاء المقومون دراسة الحالات النفسية التى تؤدى الى سوء السلوك .. وكما نعترف نحن الى اطبائنا بكل أمراضنا الجسدية ليتولوا علاجها، فكذلك هم يعترفون الى مقوميهم بكل ما فعلوا مما يشين الخلق . فهم ونحن على طرفى نقيض: نحن نعترف بالامراض الجسدية ونكتم الامراض الخلقية ونخفيها عن الناس، أما هم فيكتمون الامراض الجسدية ما استطاعوا ولا بأس عندهم من اعلان الامراض الخلقيه فى الملا . فالواحد منا يقول لاصدقائه : لقد أصابنى الليلة برد خفيف ، أما واحدهم فيقول لاخوانه : لقد سرقت اليوم جوربا واريد عرض الامر على مقوم ! .

ولعل اعجب ما يستوقف النظر فى محاكمهم ، انهم يحاسبون المرء على سوء حظه (١) حسابا يختلف يسرا وعسرا باختلاف درجة سوء الحظ الذى اصاب المتهم .. ذهبت يوما لارى احدى المحاكم فالفيت القاضى يحاكم رجلا لان زوجته ماتت وخلفت له اطفالا ثلاثة سن اكبرهم ثلاث سنوات ، ولقد ادهشنى ان توجه المحكمة قارص اللوم الى من تولوا الدفاع عن المتهم فى جريمة ظاهرة كهذه !. ومما قاله القاضى تبريرا لحكمه الذى قضى به : نريد أن تكون احدى قواعد الاخلاق فى ارون أن يحترم الانسان بمقدار ما يواتيه حظه (٢) ،على أن الدولة لا تبيح لفرد ان يبلغ من سوء الحظ حدا مسرفا غير معقول .. ثم التفت القاضى الى المتهم وقال : ان موت زوجك حظ بالغ السوء ،

(١) - احب ان الفت نظر القارىء الى التهكم هنا - وان يكن ظاهرا - لسيدهش القارىء من قوم يحاسبون الناس على سوء حظهم ، ولكنه ان فكر قليلا يجد أن ذلك ما نعلمه نحن ، الا فكرمعندنا مسئول عن سوء طالعه !! .

(٢) ما ابرع هذا التهكم من الكاتب على الحالة السائدة بيننا وهى أن صاحب الحظ السعيد هو وحده الجدير باحترام الناس !!

والطبيعه من شانها ان تقرن مثل هذا الحظ الانكد باشد الجزاء، ويجب ان يسن القانون البشرى على نسق القوانين الطبيعية ، ولذا فانت فى رأيى تستحق السجن والشغل الشاق ستة شهور ، ولكنى ساخفف العقوبة الى ثلاثة اشهر فقط ، لانى علمت انك قد تحوطت لسوء الحظ وامنت على حياة زوجك بمبلغ لا باس به .

ولعل اعجب قضية رايتها عند هذا الشعب العجيب قضية رجل حوكم لاصابته بالسل الرئوى ، فدافع المريض عن نفسه بانه ورث هذا المرض عن ابيه ، وبانه اصيب بحادثة مروعة فى طفولته اضعفت بنيته ولكن القاضى أجاب فى حدة بانه لن يلقى بالا الى مثل هذه الاعذار السخيفة الباطلة التى ترد التبعة على الاسلاف (١) ،لانه ان قبل ذلك لامكن أن ترد الجرائم كلها الى الخلية الاولى ، بل الى السديم الاول الذى نشا منه الكون . وقال القاضى انه يأسف ان يرى شابا فى الثالثة والعشرين يتقدم اليه متهما بمثل هذه الجريمة الشنعاء وانه لولا أن ارض ارون قد الغت عقوبة الاعدام لقضى عليه بها ، اذ لو سمحت الدولة ببقاء الامراض فى اهلها لظهرت على الفور طائفة الاطباء وطائفة تجار العقاقير ، وهما طائفتان تجران البلاد الى خطر مستطير .. اما ان دافع المريض عن نفسه بانه ولد مريضا او نشا فى طفولته هكذا وهو لذلك غير مسئول ، لاجابة القاضى بانه سواء كان المرض من خطأ المريض أو من خطأ سواه ، فهو على كل حال خطأ استقر فيه وواجب الدولة أن تمحوه .. وقضى القاضى أن يسجن الرجل وان يكلف بالعمل الشاق مدى حياته ..

---

(١) لاحظ ان الكاتب يتهكم هنا من غفلة الناس على هذه الارض ، حدت بهم أن تحاكم المجرمين وتحملهم مسئولية اجرامهم مع فى اغلب الحالات قد ورثوا اخلاقهم عن آبائهم

هكذا كان حكم القضاء فى المرضى والضعفاء ، ويعتقد اهل ارون ان تلك هى الوسيلة الوحيدة لمنع انتشار الضعف والمرض فان ظن ظان ان هذه قسوة جائرة فقد فاته ان عشرة امثال هذه القسوة كانت ستنزل بالناس بسبب العدوى ان لم يمح امثال هؤلاء ... ان اهل ارون لايرون غرابة فى ان يحاكم الناس من اجل حظهم المنكود وان يجازوا خير الطالعهم السعيد . ويبررون ذلك بأن تلك هى حالة الانسان الطبيعية ومن الحمق ان تعترض بقولك ان الانسان ليس مسئولا عن سوء حظه ، اذ ما هى المسئولية ان لم تكن عبارة عن استعداد للفرد للجواب على اسئلة يوجهها المجتمع اليه عن حياته وعمله ، تلك هى سنن الطبيعة ولن تجد لها تبديلا . فماذنب الحمل ترعاه وتكلاه لتذبحه وتاكله ؟ ذنبه سوء حظه الذى جعله شيئاياكله الانسان ... ولماذا يكافأ ابن الغنى صاحب الملايين ؟ لان من صالحنا ان نحتفظ بما يملكه فراينا الوسيلة الى ذلك ان نحتفظ للناس بما يملكونه ، ولولا ذلك لما ابقينا لصاحب الملايين على ملايينه ساعة واحدة .. الحقيقة التى لاريب فيها ان الملكية سرقة وكل الناس لصوص ، وقد ارادوا ان ينظموا السرقة فيما بينهم .. الملكية والزواج وسائر القوانين هى بمثابة الشكيمة التى تضبط الغرائز كما يضبط السد ماء النهر ، فويل لمن يثلم سدود النهر حين يكون النهر فياضا بمائه

واى غرابة فى ان يحاكم اهل ارون المريض وسيىء الحظ ؟ اننا لانتردد فى نبذ المريض بالحمى الصفراء ولا نسمح له بالدخول فى ارضنا ، ونحصر المجنون فى بيمارستان ولا ناذن له بالخروج ... اننا نقتل الثعبان لا لشىء الا لانه ثعبان يعرض حياتنا للخطر ، وكل جريمته انه لم يكن حيوانا مامون العواقب . نحن نقتله ولا نرى فى قتله اجراما وان كنا قد نعطف عليه .. . ولقد يعترض معترض بان القانون ظالم ان هو حاسب المرضى بمرضهم ، لان المرض نتيجة لاسباب فوق مستطاعهم ان يسيطروا عليها ؟

هذا صحيح . ولكن المريض بالسل مثلا كالفاكهة المعطوبة ، ليست مسئولة عن عطبها ، ومع ذلك فلا تتردد فى قذفها ليسلم الباقى

لو اهل لرون ينظرون الى الموت نظرة اخف من نظرتهم الى المرض ، فهم لايكترثون بالاجال المحتومة مع علمهم بأن الحياة قصيرة الامد . . فان اسلم احدهم الروح احرقوا جسده وذروه مع الرياح وهم لايجيزون ان تقام التماثيل للعظماء ، اذ رأوا ان التماثيل التى تكدست على مر العصور قد ازدحمت فى الطرق والميادين ازدحاما يعطل سهولة السير . . ومن تقاليدهم الا عزاء فى ميت والا يلبس احد شعار الحداد

واما دياناتهم فهى عبادة الاوثان ، ولكنها وثنية تقوم على هدى من العقل السليم ، فتراهم يشخصون فى تماثيلهم بعض الصفات (١) كالعداله والقوة والامل والخوف ولآلهتهم تلك شغف بشئون البشر ، وهم يغضبون اذا اهمل الناس عبادتهم ، والعجيب فى امرهم انهم يعاقبون من اجل ذلك الاهمال اول من يصادفونه ، ولا يابهون كثيرا ان يقع العقاب على من وقع منه الاهمال . وهم يعاقبون الناس اذا اخطأوا فى حقهم عن جهل وغير عمد ، شانهم فى ذلك شان القانون الانجليزى يفرض انه محفوظ معلوم عند الجميع

وانى لاذكر ذات مرة كنت اتحدث الى فتاة ، فكانت تشرح لى دياناتهم تلك ، فلما عرضت عليها عقائدنا ، ضحكت وقالت : واى خلاف بيننا وبينكم ، أن الهكم هو تعبير لرأى الانسان عن الصفات المحمودة ، فهو عندكم حكمة وقوة ، وقد شخصتم هذه الصفات فيمن سميتموه الله . . واحسب ذلك انتقاصا من الالوهية السامية ، ولعلنا نكون اقرب الى الحق ان عبدنا الله فى

---

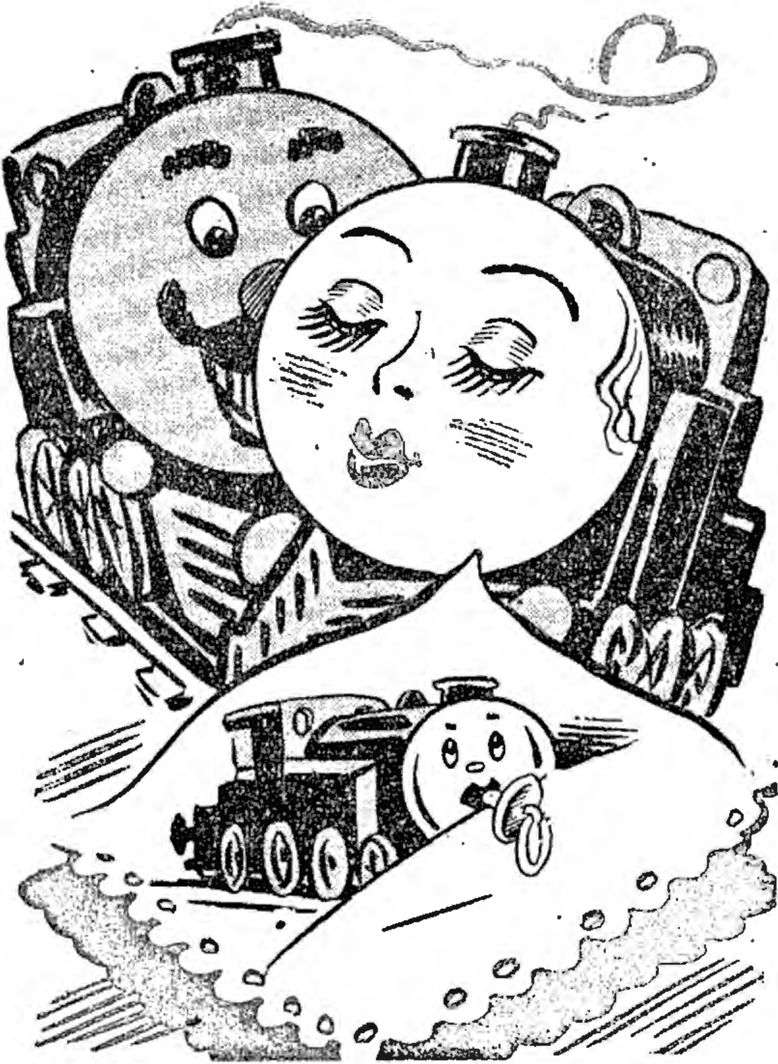
(١) احب ان يلاحظ القارئ ان ذلك تهكم بعقيدة الناس على هذه الارض اذ الكثرة الغالبة من رجال الدين لاتفهم الله الاعلى انه مشخص على نحو ما

كل مانصادفه في الوجود ، فنعبده في آيات الفن وفي مظاهر الطبيعة ، نعبده في الصورة الجميلة وفي التمثال الرائع وفي الحقل والسحاب والبحر ، نعبده في الانسان ، في الطفل والمرأة والرجل ...

وينكر اهل ارون خلود الروح ، ورايهم في ذلك ان العقيدة في خلود الروح تغرى الناس باهمال هذه الحياة الدنيا وقد تدعوهم الى الاستسلام للفقر والمرض

ومن اعجب عقائدهم ان روح الانسان كانت موجودة قبل ميلادها في عالم روحاني ، فلما ارادت ان تهبط الى هذه الدنيا انطلقت توسوس الى زوجين ان يتلاقيا لينسلاها في جسد ، مع ان الزوجين لو تركا لرايهما لما اضافا الى العالم انسانا جديدا .. من اجل هذا ترى حكومة ارون حريصة على ان تخلى الاباء من تبعة الابناء ، فشهادة الميلاد عبارة عن اقرار بأن الوليد كان في عالم الروح ، وانه هو الذى دبر مؤامرة مجيئه الى هذا العالم ، فاساء بذلك الى والديه وحرمهما لذة الحياة وسعادتها .. والوليد هو المسئول عن نقصه الجسماني الذى ستحاسبه عليه الدولة ، والعرف عندهم ان يتلى هذا الاقرار في اليوم الثالث بعد الميلاد على مسمع من الوليد ، فان صاح كان ذلك اقرارا منه بالقبول ، ولم يعد من حقه ان يعارض القانون ان اراد محاكمته على مرض او تشويه

وفيم اعتراضهم ؟ انهم يقولون ان الارواح قبل ولادتها كانت تعيش في مدن وتاكل وتشرب كما يفعل البشر ، وقد كانت تنعم بالسعادة الكبرى لان حظوظهم جميعا تتراوح بين حدين معقولين ، فلا تسرف في الزيادة ولا تفرط في النقصان ، ومع ذلك فقد يرغب بعض تلك الارواح في ان يلبس اجسادا كاجسادنا فياخذ في السعى الى المجىء الى هذه الدنيا مع ان هذه الدنيا لا تعجب الا الحمقى والمغفلين . فاذا اراد روح ان يهبط الى الارض ذهب الى قاض يتلو عليه شروط الحياة في الارض قبل ان يقدم على فعلته فيقول :



انـــا لن نشـــهد قاطرتين تتزاوجان وتتناســلان فتلدان قاطرة صغيرة تلعب أمام الحظيرة

ان اهل الارض لاحق لهم فى اختيار الاجساد التى يضعون فيها ارواحهم ، بل ان هذا خاضع للمصادفة العمياء وحدها ، وان الابوين اللذين سينسلانه لاعلم لاحد بهما فقد يكونان غنيين او فقيرين : مريضين او صحيحين ، رحيمين او قاسيين . وعلى الروح اذا ماولد ان يضع نفسه تحت رحمة ابويه عدة سنوات ، مع انه لايدرى عن بيئتهما او عن نصيبهما من سلامة التفكير شيئا

فكر ايها الروح فى احتمال ان يلدك ابوان شقيان فيربيانك على الشر والرذيلة ، او ابوان احمقان فينشئانك على الكذب والباطل، او ابوان يظنانك ماكا لهما لاملك نفسك ، او ابوان لايفهمانك فيحسبانك عاقا لاتكن لهما الحب ، او ابوان ينظران اليك نظرتهما الى الوحش الصغير يجب ان تخضد شوكته وهو فى حجر الطفولة خشية ان يشب وله مشاعر خاصة به فيقض بها مضجعهما .. . تذكر ايها الروح ان تكوينك سيخضع للصدفة المحضة ولن يكون لك راى فى تنشىء نفسك .(١)

اليست هذه العقيدة عند اهل ارون تصويرا دقيقا للحياة ؟ ان العلاقة بين الاباء والابناء على اسوأ ما تكون العلاقات . لماذا لايعامل الاباء ابناءهم كما كانوا يحبون ان يعاملهم آباؤهم ؟ هذه بديهية سهلة ولكنها عسيرة التنفيذ ، ولعل العظماء وحدهم هم القادرون على تنفيذ البديهيات ! اليس معظمنا يسعد مع غير آبائه اكثر مما يسعدبينهم ... الصورة المثلى للحياة ان تسود المحبة الصحيحة التى لارياء فيها بين الاباء والابناء اما ان اسرف الوالد فى انانيته فليتوقع كره ابنائه . وواهم من يظن ان كلمة « والد » فى نفسها طلسم يولد فى قلب الابن اعاجيب الحب !

واحسب المال سببا لكثير من الشقاء بين الوالدين والابناء . فلو ترك الابناء ليكسبوا قوتهم فى سن باكرة ليشعروا باستقلالهم

---

(١) انظر كم بلغ التشاؤم واليأس من الكاتب فى اصلاح العالم

وصلح امرهم ، ولكن المجتمع يبطىء فى تعليمهم ، فيكبر الابناء وتكون لهم حاجات ورغبات لايجدون مالا لتحقيقها .. وفيم هذا التلكؤ فى تربية الابناء الان آباءهم يبعثون بهم الى مدارس اخذت على عواتقها ان تعلم الطالب كيف يصبح عديم الفائدة ! !

لماذا لاتكتفى الدولة بتعليم القراءة والكتابة والحساب ، ثم تترك الابناء بعد ذلك يسعون وراء كسب عيشهم ؟ ان الاباء اذا راوا ابناءهم يعاونون بكسبهم على سعادة الاسرة وجدتهم يكثرون النسل بدل وأده

لقد تنبه اهل ارون الى ذلك ففرضوا ضريبة على من يترك ابناءه الى سن العشرين دون ان يزج بهم فى عمل يكسبون منه العيش . وهم بهذه الخطة الرشيدة يفيدون المجتمع بانتاج هؤلاء الابناء ، ويخففون الضغط عن الاباء ، وبذلك يبذرون بذور الحب بين الوالد والولد

ان اهل ارون يحبون الانتاج الكثير ويشجعون عليه ، وهم يعفون كثير الكسب من دفع الضرائب ... المال عندهم رمز يدل على ان صاحبه ادى واجبه وخدم المجتمع .

لقد كنت قبل دخولي ارض ارون اومن ان اصحاب المال مارقون على المجتمع وانهم ليسوا من اصحاب الجنة ، ولكنى بعد زيارتى لارون ايقنت أن المعدمين ابعد الناس عن نعيم الفردوس ان الناس فى ارضنا يقابلون المال بالثقافة فيقولون ان من ينفق ايامه فى جمع المال لن يتاح له ان يحصل قدرا موفورا من الثقافة .. الا ان هذه لاكذوبة الاكاذيب ! اى ثقافة اعظم من ان يعتمد المرء على نفسه فى كسب قوته ؟ وماذا تفيد الثقافة للفقير المفلس سوى ان تزيده شقاء الى شقاء ؟

وقد كثر اللجاج بين اهل ارون على موضوع الكهولة والشباب ، أيهما احق بالسلطان ؟ فيقول انصار الشباب ان وضع الامر فى أيدى الكهول يستحث الشبان الى الاسراع فى خلع ثوب الشباب

مع انه اخلق بالناس ان يحملوا الكهول على اصطناع الشباب ويسود الان عندهم راى ان يحكم كل من الفريقين اسبوعا ، والسن الفاصلة هى الخامسة والثلاثون ، وبذلك يتاح للشابان ان يؤدبوا الكهول !

اما الجامعات فى ارون فأول مايستوقف النظر فى نظامها انها تعنى بالجانب النظرى دون سواه ، فهم يؤثرون ان يعلموا الطلاب امورا فرضية بحتة على ان يشرحوا لهم طبائع الاشياء المحسوسة التى يرونها حولهم فى الحياة (١) ، وتراهم يلقنونهم لغة لم تعد تنطق بها السنة الاحياء بل كل شأنها انها كانت لغة زمن ذهب وانقضى . هم يملاون انفس عهود الحياة بمثل هذه الدراسة النظرية ، فيهدرون بذلك مجهودا بشريا كان يمكن ان ينصب على مشكلات الحياة الحاضرة ، وليت هذه الدراسة على عقمها تصادف هوى فى نفوس الطلاب بل انهم يساقون اليها سوقا .

ومن المظاهر العجيبة التى يلحظها الزائر عند اولئك القوم انهم يمقتون اصالة الفكر ، فهم يتوقعون من كل فرد ان يجرى فى تفكيره على نسق سواه ، ويعدونه جنونا ان تشذ فى راى او عمل . فان عارضتهم بقولك ان التنافس بين الناس فى التفكير يؤدى الى التقدم والرقى اجابوك انهم يتمنون ان يظلوا حيث هم . فمن تعن له فكرة ينبغى الا يذيعها فى الناس الا ان وثق انها ستلقى منهم قبولا ورضا . ومن الشر المرذول ان يسبق انسان عصره الذى يعيش فيه او يتلكأ من دونه ، فان كان فى مقدورك ان تجذب عصرك معك فبها ، والا فاكتم رأيك فى صدرك (١) ... ان الصحف اليومية والمدارس على اختلافها تشل النبوغ وتشجع التوسط ... انهم على نقيض الاثنيين الذين

---

(١) هذه سخرية من نظم التعليم عندنا

(٢) التهكم هنا ظاهر وغرض الكاتب واضح

كانوا يرجبون بكل راى جديد ،اذ تراهم وكانما حسبوا عقولهم كالمحاريب المقدسة اذا استقرت فيها فكرة فحرام ان تعارضـــها فكرة اخرى !!

لقد اشرنا فيما سبق الى ان استاذا عالما اخرج كتابا عن الآلات وخطـــرها الـــداهم على الانسانيه ، وكان قوى الحجة فى كتابه بحيث حمل الاهلين معه فى الراى فحطموا آلاتهم ،وحرموا استخدامها . ولما كان هذا الكتاب عميق الاثر فى حياة ارون ، كان لابد لنا من تلخيص ما فيه :

مرت ازمان كانت الارض فيها خلوا من كل حيـــوان ونبات ، ولم تكن سوى كرة ملتهبة اخذت قشرتها فى البرودة شيئا فشيئا . فلو شهدها انسان حينئـــذ لماصدق ان كائنات لهـــا عقـــول ستتطـــور يـــوما من ذلك اللهب المتاجج ! ... ولكن ذلك ماحدث فى مجرى الزمن . افيستحيـــل اذن ان يتطور العقـــل الى شىء جديد لاندريه ولا نتصوره ؟ .. اذا امكن ان يتطور عقل الحيوان من النبات ، فمـــاذا يمنـــع ان يتفرع كائن عجيب من عقـــــل الانسان ؟ انه لحمق وغباء ان نرى كل هذه المراحل التى تطورت فى مدارجها الحيـــاة ، ثم نزعم ان المـــرحلة الحيوانيـــة هى غايـــة الشوط ! ..

ولـــو امعنت فى النظـــر الى الاشياء التى حولك لرايت بينها شيئا يشير من طرف خفى الى انه هو الجنس الذى ستكتب له السيطرة ... وذلك هو الآلة الانظركم تقدمت الآلة فى اعوام قلائل تقدما سريعا على نحو لم تعهده مملكتا النبات والحيـــوان . ان الآلة تتطور كل دقيقـــة فمـــاذا عساها ان تكـــون بعـــد ملايين السنين ؟ اليس خيرا لنا ان نقمع الشر فى اوله ؟

ومن ذا الذى يـــزعم ان آلة البخـــار مثـــلا لا ادراك لهـــا ؟ فليحدثنى الزاعم اين يبـــــدا الادراك واين ينتهى ؟ من ذا الذى يستطيع أن يرسم الخط الفاصل بين الادراك واللاادراك ؟ ما الفرق بين فنجان نمسك فيه البيضة ،وبين القشرة التى تصـــنعها

الدجاجة لتمسك بها بيضتها ؟ :هذه آلة صنعت فى الداخل وتلك آلة صنعت فى الخارج ولا فرق بين الالتين . . .

ان كل شىء فى عالم الاحياء يبدو على شىء من الادراك . فهنالك ضرب من النبات يأكل بعض الحشرات ، فاذا ما وقعت حشرة منها على وريقاته اطبقها عليها وامتصها ومثلها ، اما ان سقطت عليها قطرة ماء او ذرة من حصباء فانه لايابه لها . . فاذا لم يكن هذا ادراكا فاين يكون الادراك ؟ . فان قلت ان النبات لاعقل له وانه ينمو مجبرا مادامت البيئة الملائمة لنموه قد توفرت حوله من تربة وهواء ومناخ ، شانه شان السفينة لايسعها الا ان تسير مادام الهواء يدفع الشراع . ولكن اليس الطفل كذلك مجبرا على النمو مادام الطعام واللباس الملائمان قد توفرا له ؟ اليس كل شىء فى هذه الدنيا كالساعة ، يسير اذا اعدت له العدة الصحيحة ،ولا يسعه الا أن يسير ؟

ضع نبات البطاطس فى غرفة مظلمة واثلم جدارها ثلمة ينفذ منها الضوء ، تر النبات قد زحف بفروعه على الارض ثم صعد على الجدار حتى يبلغ نافذة الضوء فيرسل فروعه خلالها . وان صادفت الفروع اثناء زحفها شيئا ملائما لغذائها اكلته ومثلته . . . فاين الادراك ان لم يكن هذا ادراكا سليما صحيحا يعلم ماذا يريد ويسعى الى الحصول عليه ؟ لعل ماحدا بالانسان ان يجرد النبات من الادراك والعاطفة انه رأى البطاطسة مثلا لاتصيح ولا تئن اذا قطعها او غلاها فى الماء ؟ ! وان قيل ان البطاطسة تمد جذورها وتلقم طعامها على نحو آلى لا ادراك فيه ، فما ادرانا الا تكون عواطف الانسان وافكاره وسائر ظواهره الانسانية نتيجة لحركة ذرية آلية ، اونتيجة لافراز هذه الغدة اوتلك؟

اما أن نعترف بان للاشياء ادراكا ، وبذلك نعترف ضمنا ان الالات ادراكا لانفهمه . واما ان نقول ان الانسان وحده يتمتع بالادراك ولكنه هبط من اصول لا ادراك لها ، فتكون النتيجة المنطقية ان تتطور الالات ـ التى قد يكون لها

ادراك اليوم - الى شيء جديد له فوق ما للانسان من ادراك وفكر .. واذن فيابني آدم سارعوا بتحطيم الآلات خشية ان تسبقكم بعد قليل فى مضمار الحياة !

انظر الى عين الانسان . أليست آلة يستخدمها المخلوق الصغير الكامن وراءها ؟ عين الميت هى كعين الحي سواء بسواء ، فليست هي التى تعجز عن النظر ، ولكنه ذلك الكائن الكامن وراءها هو الذى اصابه العجز ... فأى فرق بين هذه الآلة المركبة فى اجسادنا وبين المنظار المقرب او المكبر نشهد به الشموس والاقمار وصغار الديدان ؟ أليس لدينا من الآلات مايحسب الارقام ادق مما نفعل بعقولنا ؟ فحيثما احتاج الانسان فى عمله الى الدقة طار الى الآلة لانها تفضله فى الدقة ولا تعرف الخطأ والزلل ؟ والآلة فوق ذلك لايصيبها النصب والنعاس، فهى ابدا تقتدر على العمل ،وهى ابدا موفورة النشاط صبرها غير نافد . الآلة اقوى من اشداء الرجال ، والآلة اسرع فى طيرانها من الطير ، والآلة تسير على سطح الارض وتغوص تحت اغوار الماء ! !

بل فكر فى امر الانسان قليلا . انه مليء بألوف الالوف من الطفيليات حتى ان جسد الانسان يكاد يكون مجموعة من تلك الطفيليات . فهى اذن التى تعينه على السمع والنظر وسائر الملكات . فلماذا لاتعد الانسان حيوانا طفيليا يعين الآلة على السمع والنظر وما اليهما ؟

ان الآلة البخارية تستهلك الطعام كما يستهلكه الانسان ولها نبض ودورة كما للانسان • قد يقال : ولكن الانسان ادق تركيبا ونحن نجيب ، اعط الآلة نصف الزمن الذى اتيح للانسان ، وانظر كم تبلغ من دقة التركيب،

انى لارى الانسان يعمل بنفسه على خلق خلفه فى سيادة الارض ! انه مايفتأ يزيد من دقة الآلة ونظامها وقوتها ، ولست اشك

فى ان الامر سينتهى بالآلة الى ذكاء خارق وعندئذ تعلو فى سلم الكائنات وتسود

كانت الآلات فيما مضى تاكل بواسطة الانسان او الحيوان ، اذ لم تكن لها معدات لهضم الطعام . فكان المحراث والفاس والعربة — مثلا — تستغل معدة الانسان او الحصان فى هضم ماتريد لنفسها من قوت . فلابد ان ياكل الانسان لحما وخبزا ولا بد ان ياكل الحصان علفا ونجيلا ، ليتحول القوت فى ذلك او فى هذا الى قوة ، ثم لتنصب القوة على المحراث او الفاس او العربة فتحركها . أو ليس معنى هذا ان اللحم والخبز والعلف ان هى الا طعام تقتات به الآلة فى معدات غيرها ؟

ثم انتقلت الآلة فى ذلك خطوة فى سبيل التقدم فاصبحت صنوف منها قادرة على اكل طعامها بنفسها ، فكانت هذه خطوة فسيحة دنت بها — ان لم اقل من الحياة — فمن حالة تشبه الحياة وان اختلفت عنها فى الظواهر ، كما يختلف النبات عن الحيوان . فان يكن الانسان ممتازا — اذا قيس الى الآلة — فى بعض نواحيه ، فلا يمنع هذا ان تكون الآلة سائرة فى سبيلها نحو السيادة عليه ، وتلك سنة الطبيعة فى تطور الاشياء ، افلا ترى بعض الحيوان يفوق الانسان فى بعض جوانب الحياة مع انه سابقها فى سلم التطور ؟ فيمتاز النحل والنمل عنه فى التنظيم الاجتماعى ويمتاز الطير بطيرانه والسمك بسباحته والجواد بقوته وسرعته والكلب بتضحيته بنفسه ؟

قال لى بعض من حدثتهم فى موضوع الآلات واحتمال رقيها على الانسان : لن تكون الآلة شيئا حيا او شيئا يفوق الحياة ، لانها لاتنسل .. . فان كان هؤلاء المعترضون يريدون بذلك انها لاتتزاوج ، أعنى اننا لن نشهد قاطرتين تتزاوجان وتتناسلان فتلدان قاطرة صغيرة تلعب امام الحظيرة . فانا اوافقهم فى الراى بغير شك .. ولكن من زعم لهؤلاء القوم أن الآلة ستظل على حالها أبد الآبدين ؟ ألا يختلف الحيوان عن النبات اختلافا شديدا ومع

ذلك فلكل منهما طريقة خاصة به للتزاوج والتناسل ؟ فهل عقمت الطبيعة ولم يعد في جعبتها للنسل سوى هاتين الطريقتين : طريقة النبات وطريقة الحيوان ؟ لماذا لا تفرض أن الطبيعة لاتزال خصبة الابداع ، وانها ستبتكر للآلات وسيلة ثالثة لم تطرأ على عقل الانسان ؟

هذا على فرض أن الآلة لا تنسل كما ذهب هؤلاء ، ولكن الآلة تنسل بالفعل آلة اخرى . وان لم يكن الامر كذلك فقل لي بربك ماذا يصنع الآلة الا آلة غيرها ؟ ستقول : ولكنه الانسان هو الذي يعينها على ذلك . وهذا صحيح .. ولكن أليست الحشرات هي التي تساعد النبات على التناسل ، ولولاها لفنيت اسر من النبات بأسرها . أيزعم زاعم أن البرسيم الاحمر لاينسل لان النحلة وحدها هي التي تمكنه من ذلك ؟ لا ، ولكننا نقول ان للبرسيم نسلا وان النحلة جزء من جهازه التناسلي ... بل لماذا نذهب في القول بعيدا والانسان نفسه يستعين على النسل بجرثومة ليس بينها وبينه شبه ، ومع ذلك لايجرؤ معترض ان يقول أن الانسان لانسل له ، بل كل ما يقوله هو ان للانسان نسلا وان تلك الجرثومة جزء من جهازه التناسلي .. . وأن كان هذا هكذا فقل لي بربك ماذا يمنع ان يكون الانسان جزءا من جهاز الآلات التناسلي ، بمعونته تستطيع ان تلد وتنسل الوف الالوف من مختلف الآلات ؟

ولعلي اسمع قائلا يقول : ولكن الآلة ان نسلت فلا تنسل آلة مثلها . فالابرة — مثلا — لاتلد الابرة ، ولكن والدة الابرة آلة اخرى لاوجه للشبه بينهما — وهذا صحيح كذلك ، ولكن ادر وجهك الى الطبيعة وانظر — الست ترى كثيرا من الاحياء لاينسل اشباهه ، لا بل فئة قليلة جدا من الاحياء هي التي تلد اشباهها . اما بقية الاحياء فتلد شيئا فيه القوة لان يكون شبيها بآبائه : فالفراشة تضع بيضة فتكون البيضة سرفة فشرنقة ففراشة

لست اشك فى ان الآلة قد اصطنعت لنفسها جهازا للطعام وستسرع الخطى فى ان تبتكر لنفسها جهازا راقيا دقيقا للتكاثر قبل ان يمضى من الزمن أمد بعيد ! !

ويجوز جدا أن تختار الآلة فى تطورها ان يختص بعضها للنسل دون بعض ، وليس ذلك عجيبا ، فالنحل والنمل انما يسلكان هذا السبيل ، ينسل بعضها ويسعى بعضها الآخر لسائر جوانب العيش

وقد سمعت رجلا يقول : ان كان للالة البخارية قدرة فليس لها ارادة .. ولكن هل ترى - أيها الصديق - فى العالم كائنا له ارادة حرة سوى الله ؟ . . ان الانسان نتيجة محتومة لمجموعة من القوى والمؤثرات عملت على تكوينه قبل الولادة وبعدها : فهو خاضع لبيئته وبنيته ، اعنى انه متاثر بالظروف الخارجية كالآلة سواء بسواء ...

انك مهما قلبت النظر الفيت الآلة سائرة فى سبيل السيادة على الانسان بغير شك ، فالخير فى قمع الشر قبل استفحاله ... ولكم نخشى - ان تمسكنا بالآلات فى حياتنا - ان نسوى بين افراد البشر ، فلا يعود فرق بين قوى وضعيف . اذ سيصبح فى مقدور الضعيف ان يخفى ضعفه ، فينقل هذا الضعف الى نسله وبهذا تنحط الانسانية انحطاطا لا ريب فيه ...

لهذه وغيرها من الاسباب ، استغنى اهل ارون عن الآلات وحطموها تحطيما لا رجعة لها بعده

وهذه ظاهرة عجيبة حقا فى اهل ارون تستدعى كل اعجاب ، وتلك انهم لا يترددون فى اتباع الراى الجديد ان قامت عليه الحجة ... ومن ذلك ان نبيا ظهر بينهم يبشر بمذهب جديد ؟ فلم يلبثوا ان اتبعوه حين تبين صدق ما يذهب اليه ، وان يكونوا قد عدلوا فيما بعد عن شدة الاستمساك بالراى لما برهنت لهم الايام وطبائع الانسان ان ذلك الراى فى حاجة الى التحوير ... وهاك صفوة ما بشر به نبيهم :

كان الانسان يقتل اخاه الانسان وياكله ، ثم تعاقبت عليه الوف السنين فعلمته ان يستنكر القتل ... ولكني ادعوه ان يخطو فى ذلك خطوة اخرى ، وهى ان يعف عن ذبح الحيوان ... قد يكون الحيوان مخالفا لنا فى بعض اوجه حياته ولكنه شبيهنا بغير شك فى معظم الوجوه ، فان كان من الخطأ يا قومى ان تقتلوا بنى الانسان ، فمن الخطأ كذلك ان تذبحوا الحيوان لتاكلوه ... ان للحيوان ـ من طير وسمك وماشية ـ كل الحق فى ان يعيش آمنا على حياته من اعتداء الانسان ..

نعم انا عليم بأن الحيوان لا يزال يقتل بعضه بعضا ، ولكن هل ينبغى ان نجاريه فى ذلك ؟ اننا لو فعلنا هبطنا الى مستواه .. اننا لو قتلنا نمرا لانه فتك برجل أو امرأة ، كنا كذلك النمر سواء بسواء ، نحن الذين نزعم لانفسنا منزلة اعلى من الحيوان فى الفكر والعمل !

اتبع الناس صوت الداعى اول الامر ، ثم تبينوا انهم اما أن يرتكبوا خطيئة قتل الحيوان واما أن يموتوا ، فآثروا الاولى على الثانية

وماذا تراهم صانعين ؟ انهم لو استمعوا لصوت العقل وحده لكانوا من الهالكين . فلا بد لمن يريد لنفسه اصلاحا من مزج العقل بالغريزة ... (١) فانه لم يمض بعد النبى الذى بشر بعدم ذبح الحيوان أمد طويل ، حتى ظهر فيلسوف ينشر رايا جديدا ، وهو أن للنبات ذكاء وادراكا ، فمن الكمال الا نعتدى عليه فناكله ! يقول الفيلسوف :

اذا كنا نتهم النبات بالغفلة لانه لا يفقه من حياة الانسان شيئا ، فماذا يدرى الانسان عن حياة النبات ؟ هل تستطيع ان تنبئني كيف تحول بذرة الورد قدرا من التراب وهبة من الهواء وحفنة من الماء الى وردة يانعة ؟ أنى لها اللون والاريج ؟ اجاءت

---

(١) هذا أساس هام جدا فى راى بتلر ـ وهو يرمز بالغريزة الى التقاليد ـ وقصده ان شرط الاصلاح هو اتساق العقل والتقاليد الموروثة

بهما من التراب أم من الماء امن الهواء ؟ ستقول منها مجتمعة .. ولكن كيف ؟ خذ ترابا وماء وارني بكل ما بلغته من كيمياء كيف تصنع منها وردة زكية الرائحة .. . اتحسب الوردة بليدة غبية وهي تحول كتلة من الطين الى اوراق الورد ؟ اين الكيمائى الذى يصنع هذا او شيئا قريبا منه ... لا ! يجب ان نقر فى اذهاننا أن للوردة عملها والانسان واجبه ، وليس من البلادة الا يفقه احدهما من امر الآخر شيئا

ثم انظر الى العناء الذى يلاقيه النبات فى رد اعدائه عنه . فهو يخدش ويجرح ويلدغ ويفرز الرائحة الكريهة والعصارات السامة ، انه يتخفى حينا ويخدع حينا آخر . انظر الى هذه الزهرة مثلا تخش ان تمتص عصاراتها الذبابة الخبيثة ، فتلف اوراقها على هيئة ذبابة لكى توقع فى وهم الذباب العابر انها زهرة امتصت ولم يعد فيها رجاء ! ... ان لم يكن هذا ذكاء فاين يكون الذكاء يا اعداء النبات ؟

حسبى هذا القول ياقومى لادلكم على ان النبات ضرب من ضروب الحيوان اطلقنا عليه اسما آخر . فاذا كان خطيئة من الانسان ان يقتل الحيوان ، فخطيئته مثلها أن تقتلع النبات وتأكله .. . وما يجوز اكله من النبات هو ما مات منه .. اعنى الثمار الناضجة اذا سقطت على الارض من تلقاء نفسها فى اواخر الخريف . . ! الا فليعلم الناس ان من يسحق البذور كمن يشد الاطفال . ان حبة القمح لها روح حى كالانسان سواء بسواء ، ولها ماله من الحق فى ان تحتفظ بهذا الروح آمنا مطمئنا ...

اقتنع اهل ارون بهذه الحجج الدامغة .. ولكن ماذا يصنعون ؟ .. ان العقل وحده لايكفى ، ولا بد الى جانبه من الاستماع الى صوت الغريزة لانه صوت الطبيعة .. . لا بل لا امل فى اصلاح اهل ارون الا ان ايقنوا ان ما يمليه العقل وما توحى به الغريزة هما فى الاعماق شيء واحد



نبذة عن حياة وليم موريس

ولد عام ١٨٣٤ فى لندن ودرس فى اكسفورد ، وقد بدت فيه مخايل الفن ورغبة الاصلاح منذ صدر شبابه . وكان قد بدا حياته بدراسة دينية ولكنه لم يلبث ان انحرف عنها الى دراسة التصوير ، وان له فى هذا الجانب لاثرا عميقا فى اواخر القرن التاسع عشر

وانك لتلمح فى كل ما انتجه موريس خيالا خصيبا والهاما غنيا ، فتراه يتدفق فى سلاسة عجيبة ، وتقلب شعره ونثره فترى صورا متزاحمة متلاحقة ، رسمها من جوانب متعددة فى افق الحياة فصورها من الماضى ومن الحاضر على السواء ... ولكنك تلمح فى خلال هذه الصور المتتابعة المتباينة عنصرا واحدا مشتركا هو نزوعه الى التجديد ، نزوعه الى جمال الريف دون الحضر المعقد ، والكاتب يخلع على شخوصه جميعا مسحة من حزن وأسى ، لعل حزنه هو من مر الزمان . ومن صفات كتابته انه يمزج الحقيقة بالحلم مزجا يطبع الكتاب بطابع غريب فيجعله كأنه خلط مهوش . ولكنه بلغ ذروة فنه فى كتبه التى بعد فيها عن الحقيقة الواقعة ومنها هذا الكتاب الذى نحن بصدده : « ابناء الارض التى لا وجود لها » كتبه عام ١٨٩١ وقد صور فيه احلام الانسانية وامانيها ، ولكنه صورها على نحو يخيل الى القارىء انها قريبة جدا من التحقيق، فهو يرسمها كأنها حقائق ملموسة ، ويرسم لنا ما ينبغى ان يسود الحياة من سعادة ، وعطف اخوى بين الانسان والانسان ، وعاطفة تخلو من القسوة

الاليمة ، وعناء يخلو من اللذعة المريرة ، وعقل مطمئن هادىء فى ارض جميلة عادلة

ومات موريس عام ١٨٩٦

أبناء الأرض التي لا وجود لها

اخذتنى سنة من النوم بعدحوار حاد مع بعض الاصدقاء استيقظت بعدها موفورالنشاط، فقصدت الى نهر التيمز استمتع بهوائه ومائه ، وهنالك الفيت نوتيا عرض ان يستصحبنى معه فى قاربه ... وبينا نحن نسابحان اذا بى ابصر جسرا جميلا ، فسألت النوتى : متى شيد ذلك الجسر ، فاجاب الرجل : انه قديم ، اظنه قد اقيم عام الفين واثنين فاخذتنى دهشة عجيبة عميقة ان اسمع الرجل يتقدم بالزمن قرنين ؛ ولكنى كتمت عجبى فلم أبد منه شيئا . وماهى الا ان رسونا على الشاطىء فادخلت يدى فى جيبى واخرجت للرجل اجر عمله ... فنظرالى الرجل نظرة المبهوت .. اجر ؟ اجر ماذا ؟ اتؤجرنى على عملى الذى اغتبط به .. انه ليلوح لى انك غريب فى هذه البلاد . نعم، لقد بلغت ان الناس منذ قرنين كانوا يؤجرون على العمل . لكم يسرنى ياسيدى ان اهديك فى هذا البلد مادمت غريبا عنه ...

لم ادر ماذا اقول سوى ان اذعنت ، ومضيت ومضى معى الرجل ، فرأيت فى عرض الطريق غابة امها كثير من الاطفال يلعبون واشار اليهم دليلى وقال : ان الاطفال فى هذا البلد يؤمون الغابات فى فصل الصيف حيث يقضون بضعة اسابيع ، يعيشون اثناءها فى مخيم يضربونه بانفسهم ويتدربون كيف ينجزون بانفسهم كل مايريدون ، وهم فوق ذلك يضربون فى ارجاء الغابة ليروا

صنوف الحيوان فى عقر دارها؛ ذلك لاننا نعتقد عقيدة راسخة انه كلما قل الامد الذى يقضيه الاطفال داخل الدور وبين الوالدين ، كان ذلك خيرا لهم . . بل ان الكبار ليقصدون الى هذه الغابات الحين بعد الحين ، ليأخذوا انفسهم بشيء من شظف العيش بعد ان مهدت لهم الحياة هذا التمهيد الناعم فى العهد الاخير . . وانا لنطالب ابناءنا ان يتعلموا ركوب الخيل والسباحة والطهى والنجارة وادارة المتاجر وما الى ذلك

فسألت الرجل قائلا : الاتدربون ابناءكم تدريبا عقليا ؟ فاجاب : او لست ترى ان هذه الاعمال تكسبهم مهارة وتفسح امام عقولهم ارحب الفرص للمران والتدريب ؟ ومع ذلك فنحن نعلمهم القراءة فى سن الرابعة ، ولكننا لانرغمهم عليها ارغاما ، بل نغريهم بها مااستطعنا الى الاغراء سبيلا ، اما الكتابة فنؤجل زمنها خشية الا يحسن الاطفال الخط ، والخط الجميل غاية من غاياتنا . . واما اللغات فقد تواضعنا على ان نلقن الاطفال لغة اجنبية او اثنتين قبل أن يبدأوا فى تعلم القراءة ، فاذا مافرغ الناشيء من قراءته تركناه وشأنه يطالع مايشاء مع قليل من الهداية والارشاد . على اننا لانشجع القراءة فى سن مبكرة الا ان يبدا فى الطفل ميل طبيعى الى ذلك ، لاننا نؤثر الف مرة ان ينفق الناشيء عهد الطفولة فى فلاحة البساتين واقامة الدور واعداد سقوفها ورصف الطرق وما شابه ذلك ، وعندنا ان ذلك انفع وامتع

وكنا قد بلغنا مدينة ، ومست بى الحاجة الى بعض التبغ املا به غليونى ، فأخذنى صديقى الى متجر نظيف انيق حيث اعطتنى الفتاة ما اريد ، فهممت ان انقدها ثمن ما اشتريت ، ولكن الفتاة نفرت فاهامن العجب لهذا التصرف الشاذ . . ان الامر فى هذا البلد قد اقيم على غير قاعدة البيع والشراء ! . .



ان الاطفال فى هذا البلد يؤمون الغــابات فى فصـل الصيف

وذهبت مع رفيقى الى دارلاقيت فيها رجلا تقدمت به السن ويحسن الحديث فى شئون العهدين الغابر والحاضر ، فتركنى رفيقى مع ذلك الرجل لانه قابل حبيبته وانصرفا معا .. فاخذت شجون الحديث تتوشج بينى وبين ذلك الرجل المحدث ، فعرضنا لطائفة من الموضوعات وعلمت منه كثيرا عما يجرى بينهم فى شانها

فمنظر الشاب وحبيبته قد اثارا مشكلة الزواج والحب والطلاق ، ومن هذه طرقنا موضوع المحاكم التى من شانها ان تصل الود بين الزوجين اوتفصله .. فقال محدثى : لا ، لم يعد بيننا محاكم للطلاق لاننا لانفهم ان تنشا محكمة لعقد عاطفة بين شخصين ! ان هذه المحاكم كانت قائمة فيما مضى ، لأن اباءنا كانوا ياخذون بمبدا الملكية الخاصة ، فكان حتما أن تقوم المحاكم بفض الخلاف ، اما اليوم فلا ملكية ولا خلاف ولا محاكم .

اننا لانخدع انفسنا فنحسبنا قادمين على حب جنسى يدوم مادامت الحياة .. كان الناس فيما مضى يغالطون انفسهم فيظن الرجل انه كل شيء فى عينى حبيبته ، وان حبيبته تلك بلغت من الكمال والجمال اعلى الذرى فما اسرع ماكان يذبل الامل ويذوى ، فيصعق الرجل ويصيبه اسى لاتنقطع اسبابه ..

نحن اليوم صحاح الابدان ميسورة حياتنا ، ونحاول ما استطعنا ان نستمد من الحياة الدنيا اكبر لذة ممكنة ومن دواعى فخرنا اننا لانركز افكارنا فى نفوسنا ، ونفرض ان العالم كله سيصاب بجمود الحركة لان رجلا قد مسه الحزن .. اننا نعتقد ان من الحمق بل من الاجرام ان يبالغ الناس فى شئون العاطفة وما يتعلق بها ، فيجب ان يحاول كل شخص ان يكتم فى نفسه آلام عواطفه وآلام جسده على السواء . لابد أن

نعلم ان فى العالم لذة اكبر من الحب .. فنحن نستخف بآلام العواطف ولا نذهب مذهب الاقدمين فى ان تحمل عبثها بطولة ورجولة

فاذا اراد زوجان منا ان ينفصلا فليفعلا مابدا لهما ، فمن الغفلة ان نرغمهما على الود مادام الود قد جفت اسبابه بينهما

وسألت محدثى عن موقف النساء فأجاب : لم يعد يثور بيننا ماكان قائما فى القرن التاسع عشر من جدل عنيف حول حقوق المرأة وحريتها ، فلا الرجال يفتاتون على النساء ولا النساء يطغين على الرجال ، فالنساء يؤدين مايحسن اداءه وما يطيب لهن عمله ، ولا يعارضهن الرجل فى هذا

فقلت : ولكنى شهدت النساء هنا يطهين الطعام ويقدمنه للرجال . فقال : وهل تحسب تدبير الدار مهنة لاتستحق الاجلال والاكبار ، كان هذا فيما اظن رأى النساء « المتمدينات » فى القرن التاسع عشر ! ان المرأة الذكية يشرفها ان ترعى الدار رعاية تستدعى من الناس الاعجاب

قلت : ان المرأة فى القرن التاسع عشر كانت تطالب أن تتخلص الممتازات من النساء من عبء الحمل والولادة ، فما رأيها فى ذلك الان ؟

قال : انه حمق لا أساس له وهو نتيجة طغيان طبقة على طبقة مما كان سائدا فى العصر الغابر الدابر .. ان الامومة عندنا شرف عظيم . وقد تخلصت الام بيننا من القلق الذى كان يساورها فيما مضى على مستقبل ابنائها لانها تعلم علم اليقين ان الدولة ترعاهم وتهيىء لكل منهم من العمل ما يلائمه .

فانتهزت فرصة ذكر الابناء وسألته رأيه فى التربية قائلا ماذا ترى فى تربية الناشئة ، ولو أنى قد انبئت انك خليت بين اطفالك وبين الطبيعة دون أن تعلمهم شيئا ؟

فقال : ياوح انك عتيق الراى فى التربية ، فتذهب الى ماكان يذهب اليه الاجـــداد من تعليم النشء معلومات لم تراع فيهـا الدقة البالغة .. معلومات يفرض على الناشىء أن يزدردها ازدرارا ســواء أرادها أو لم يردها ، معلومات طالما لاكتها الاجيال دون أن تعنى بتصحيحها ، ومع ذلك ترى كل جيل يحرص على تلقينها للجيل الذى يتلوه وهكذا ..

هل تريد يا صديقى ان نلقى بأبنائنا فى المدرسة ، اذا مابلغوا سنا نتواضع عليها ، مهما تكن قدرتهم على الفهم ومهما اختلفت فيهم الملكات والميول ؟ هل تريد أن نلزم هذا الجميع المتباين من الاطفال ان يخضع لنظام واحد وبرنامج واحد ، بغض النظر عما ركبته فيهم الطبيعة من أوجـه التنافر والخلاف ؟ ألست ترى معى يا صديقى أن ذلك انـكار صارخ لحقيقه النمو الجسمانى والعقلى ؟ انه ليخيــل الى أن المدارس كما كانت عند ابائنـا اشبه شىء بالطاحون تسحـــق الاطفال سحقا ، ما لم يكن لدى الطفل ميل الى الثورة على النظام المفروض ، وعندئذ ينجو بنفسه من ذلك الخطر الداهم .. ولحسن طالع الانسانيه أن الكثرة الغالبة من الاطفال كان فيهم هذا النزوع الى العقوق والثورة ضد مدارسهم ونظمها ، ولولا ثورة أولئـــك الايفاع الصغار على تلك النظم ثورة متصـــلة لم تنقطع ، لمـا بلغت الانسانية ما بلغته اليوم ؟

واحسب ان ذلك كله كان من نتائج « الفقر » وظواهره فقـد كان يسود القرن التاســع عشر فقر مدقع بسبب السرقة المنظمة التى وضعها المجتمـــع اذ ذاك واقام عـلى أساسها كل شىء ، ولذا استحالت التربية الصحيحة على اى انسان كائنا من كان ! م كانت التربيــة ـ أو ذلك الكائن الممسوخ الذى كانوا يســمونه التربية ـ عبارة عن تلقين الطفل قليلا من العلم ، وان رغب الناشىء

من ذلك حقت عليه اللعنــة والعذاب ، ولبث طوال عمـره محروما من التعلم !

واعود فاقول أن الفقر هـو علة العلل فيما كان ـ أما اليوم فها أنتذا ترى العلم كله معروضا يستقى منه من شاء ماشاء ، وبذلك زادت ثروتنا العلميــة واشتد خصبها ، وانفسح مجال النمو امام الجميع .

فاعترضته قائلا : انتم اذن تتركون للناشىء مطلق الحـرية فى أن يطالع ما يشاء كلما مال به هواه دون وادع أو زاجر . . فهب طفلا أو شابا لا يميل الى تحصيل العلم .. أو افرض ان طفلا يعارض فى تعلم الحساب ، أفلا يحسن أن نلزمه بذلك الزاما وهو فى دور الطفولة النامية قبل ان يتعذر ذلك ؟

فسألنى الرجل : كم بلغت من العمر ؟

فاجبته : بلغت ما يـدنو من خمس وستين ..

فقال : وكم بقى لك ممـا تعلمت فى طفولتك من الرياضـة والحساب ؟

فقلت : لم يبق لى منهما شىء مع الاسف ! ..

وانتقل الحديث من التربيــة إلى موضوع آخر . . فقـد أخذ الرجل يحدثنى عمـا كان قائما فى بلدهم فى الزمن الدابر من مساكن حقيرة تمجها النواظر، اعدت للفقراء ! .. قال الرجل : اما اليوم فقد دكت تلك الوصمات دكا ومحوناها من وجه الارض محوا .. ان القوم فى هذا البلد يحتفلون كل عام بعيد يحيون به ذكرى « محو الشقاء » ، فترى الرجال والنساء يرقصـون فى ذلك العيد ويغنون ويمرحون على موقع أحقر منازل الفقراء فيما مضى ، اذ لا نزال نحـتفظ بموضعه للذكرى ! فى ذلك العيد تغنى الفتيات الجميـلات بعض الاناشيد الثوريه القديمـة التى

كان يتغنى بها الاشقياء فى الزمن الغابر لينفسوا عن كرب نفوسهم، الاشـــقياء الذين كانت رحاب الامل قد ضاقت فى عيونهم . . نعم ان الفتيات الجميلات يغنين ويرقصن على المواضـــع التى كانت تهـدر فيها الطبقـــات ، والمواضع التى كانت الطبقـات الرفيعه تفتك فيها بالطبقـات الوضيعـــة كل يوم فتـــكا ذريعا امتد طوال العصور . . وما أحلى لمثلى - ممن درســوا الماضى وعرفوا كوارثه - أن يرى فتاة جميـلة ترقص وتغنى على بقعة من الارض كانت فيما مضى منزلا - أو قل كانت كومة قذرة يطلق عليها خطأ اسم منزل - وهو فى الواقع وكر ممقوت قذر يأوى اليه بعض الرجال والنساء، الذين ماكانوا ليطيقوا الاقامـة فيه ليلة واحدة لولا أنهم جردوا من معنى الانسانية تجريدا .. فكر ياصاحبى فى هذا التحول الذى بدل البؤس عظمة وجلالا !

وجذبنا الحديث الى الحكومة فقلت لمحـــدثى : أود ان ألقى سؤالا اخشى ان يـــكون جافا عسيرا .. ما حكومتكم القائمـة وما شكلها ؟ ترى هل انتصرت قوة الشعب ، أم انتهى الامر الى طغيان الدكتاتـــورية التى كان يتنبأ بها بعض الكتاب فى القـرن التاسع عشر باعتبارها نتيجـة محتومة للديمقراطية ؟

فقال الرجل وهـو يبتسم : نحـــن اليـــوم يا سيـــدى أحرار ! فليس بيننا حكومـــة تبســط علينـــا ســلطانها

ان الحـكومة كانت فيما مضى ثمرة الطغيان وأداة الطغيان فما حاجتنا اليها اليوم وعهد الاستبداد قد انقضى الى غير رجعة ؟ . كانت الحكومة تحمى الاغنياء من الفقراء ثم توهم هؤلاء الفقراء البائســين انها انما تحميهم هم من غزوات الدول الاجنبية ! وماذا على الفقراء أن تغزو فرنســا انجلترا مادام العامل الانجليزى لن يكون أسوأ حالا ؟ نعم لن تسوء حال العامل أكثر مما كانت ، لان صـــاحب

المال لم يكن يتـرك له من ثمرة عمله الا مايقيم أوده ، فلا عليه بعد ذلك ان كان سـيده ذاك انجليزيا او فرنسيا !

واستطرد محدثي يقول : لقد يسرنا الحياة وشذبنا من اطرافها تلك النواتىء من تقاليـد مضنية وحاجات ثقيلة مما كان يبهظها فى العصر الغابر .. فقد كان العيش فيما مضى صراعا متصلا وتقاتلا لا ينقطع . واعلم ان الحياة فى صراع « هنة هينة لا مشقة فيها ولا عسر ، انما المشقة والعسر فى الحياة التى يضبط الافراد أنفسهم فيها عن المقاتلة والسرقة بعضهم من بعض .. وقد نجح أهل هذا العصر فى ضبط انفسهم ، فكان ذلك سر سـعادتهم التى تراها بادية فى وجوههم .. كان الناس فيما مضى يعتـدى بعضهم عـلى بعض ، ومن كان منهم عف اليدين كان موضع الزراية ، لا يمجده القوم فى حياته ولا يخلدونه بعد موته أمـا اليوم فلا يعتـدى انسان على حق انسـان ، وان اعتدى احد عد ذلك منه هفوة صـديق نحـو صـديق يعتذر له عنهـا ، أعنى ان المجتمع لا ينبذه باعتباره عدوا لم يعد يصلح للحياة بين أعضائه

فسألته : اتريد بذلك أن ليس بينكم فئة « المجرمين » ؟

فاجاب : وكيف تنتظـر ان يكون هؤلاء بيننا وليس منـا اغنياء يثيرون الحقد فى صدور الناس حتى ينتهى بعضهم الى شق عصا الطاعـة للدولة التى ظلمته .

انه لم يعد لدينا ما كان يسمى فى العهد الغابر « بالقـانون المدنى » . ذلك لان القـانون والمحـاكم كانت قائمة لتحمى الملكية الخصوصية ، وما دامت هذه الملكيه قـد اجتثت من جذورها ، فقد امحت الجـرائم التى كانت تنشأ بسببها ، ولم تعد بنا حاجة الى محكمـة او قانون .»

فسألته : وما شان سـائر الجرائم عندكم ، فاحسـب ان

الجريمة لابد من وقوعها ، وما اظنكم قد الغيتم فيمـــا الغيتم القانون الجنائي ؟ . .

فقال : ليس لدينـــــا قانون جنائي بالمعنى الذى تقصده . . فكر معى فى الامر لنرى كيف تنشأ الجرائم . ان معظمها كان ينشأ فيما مضى بسبب الملكيـة الخصوصيه ، لان قيام الملكيـة يثير الطمع فى الصدور ، حتى لا ترى أحدا قانعا بما عنده ، فلما انقضى عهدالملكيةانقضتجرائمها . . وسـبب اخـر للجرائم هو فهم العواطف الجنسية فهمـا باطلا ، فكان ذلك علة كثير مما كان يقع بين الناس من غـــيرة وشقاء . . ولو فكرت فى أساس الامر لالفيته فكرة وهمية خلقها القانون ، وهى ان المــرأة ملك للرجل ، سواء أكان الرجـــل زوجها أم اباها أم اخاها أم كائنا من كان . فلما امحت فكرة الملكية ذهبت هذه النزعة أدراج الرياح . . وسبب ثالث للجـرائم وهو طغيان الاسرة ، وذلك ايضا احدى نتائج الملكية الخاصه ، وقـــد انتهى ذلك ، لان إفـراد الاسرة لم يعد يربطهم رباط قانونى او اجتماعى بل تصلهم صـلة الود والمحبة ، ولكل عضو فى الاسرة ان يتصل بها او ينفصل عنهـا حيثما أراد . . أضف الى هذا ان مقاييس الشرف والتقـدير قد تغيرت ، فاصبح لكل انسان الحق فى أن يستغل ملكاته الى اقصى حـدودها دون أن يلقى فى سبيله عثرات الغــيرة التى كانت تفتك بالنفوس . أن كثيرا من شقاء الانسانيـة فيما مضى كان سببه هذه الغيرة المقوتة التى دفعت فئة كبيرة من الناس الى الجريمه .

ولست اريد بذلك أن الجريمة قد نضب معينها ، فـلا يزال فى الناس بعض النزق فيضرب أحدهم الاخر فيعتركان فينتهى الامر بالقتل أحيانا . ولكن ماذا نصنع بالقاتل ؟ أنقتله ؟ كلا لا



ان البيع والشراء لايخضع لنظام النقد ـ فاطلب ماتريد . .

نفعل ، لاننا نزن أمورنا بالميزان الصحيح ، فقتل القاتل لن يعيد الحياة للقتيل ولن يمحو شيئاً من الاسى فى نفوس ذويه .

قلت : ولكن ألا ترى ان سلامة المجتمع لا تستقيم بغير حساب وعقاب ؟

قال : لقد اصبت شاكلة السداد . ما العقوبة التى طالما ثم تصرفوا فيها تصرف الاحمق تحدث الناس عنها حديث الحكيم البليد ؟ العقوبة تعبير عن الخوف .. وقد كان للناس عذرهم ان يأخذهم الخوف ماداموا يرون ذوى السلطان بينهم يمتشقون السلاح ليتقوا خطر الرعية التى يحكمونها .. كانما الامر بين الحكومة والشعب ليس أمر الجند وقائده ، بل العلم وصائده .. اما نحن اليوم فنعيش بين فئة من الاصدقاء ، لا نستشعر الخوف ولا نستنزل العقاب .

فقلت : هب رجلا تعود الاجرام ، فيقتل رجلا فى كل عام مثلا ، فماذا أنتم صانعون به ؟

فقال : يستحيل ان يحدث هذا فى مجتمع لا قانون فيه ولا عقاب . لان العقوبه تغرى النفس بأن تحاول الاجرام والافلات من العقوبة ، ولان القانون يغرى بالاعتداء عليه .. ومع ذلك فان امعن رجل فى اجرامه كان فى رأينا مريضا يجب علاجه - كالمجنون سواء بسواء ولكن أمره فى الاعم الاغلب هو ان يحزن الفاعل على فعلته ويشعر بلذعة الضمير ، فيستغفر من وقع عليه الاعتداء

قلت : اتحسب الاحساس بالحزن بعد الجريمة رادعا كافيا ؟

قال : نعم ، فضلا عن ان ذلك هو ما فى وسع الانسان ان يعمله .. اما ان عذبنا المجرم فسيتحول حزنه الى غضب ورغبة فى الانتقام .. ان مذهبنا هو ان الاجرام مرض عصبى يحتاج الى

الطب والتمريض لا الى القانون والتعذيب . ولما كنا - بوجه عام - صحاح الابـدان فنحن بمنجاة من هذا المرض

قلت: لقد ألغيتم اذن قانونكم المدنى والجنائى . ولكن احسبكم قد احتفظتم بقانون ينظم التبادل بين الناس فى السوق ، لانه مهما يكن شأنكم فى الغاء الملكية فالتبادل شىء لا محيص عنه .

قال : نعم ، قد تواضعنا على قواعد نسير وفقها فى تبـادل السلع . ولست أحب ان اسميها قوانين ، لانها تمت برضا الناس اجمعين ، وليس بينهم من تغريه اطماعه ، بالاعتداء عليها . أما القانون فهو قرين العذاب لفريق من الناس . فاذا رأيت القاضى مستويا الى منصتـه ، رأيت خلاله - كأنه منشور من زجاج - رجال الشرطة والسجن والجلاد .

ومسسنا السياسة بالحديث فسألت محدثى : وكيف تديرون شئونكم السياسية ؟

فاجاب فى لهجة قـوية : لا سياسة عندنا . وان قدر لهذه المحاورة ان تنشر فى كتـاب ، فارجو ان تفرد لهـذه العبارة القصيرة بابا خاصا .

فسألته وكيف تقوم علاقاتكم مع الدول ؟

فاجاب : اننا لما قضينا على أوجه التفاوت بين الانسـان والانسان ذهب التناحر والتنافس الدنىء بين الامم فاعترضت قائلا: ولكن ألست ترى ان محو جوانب الخلاف بـين الامم يسىء الى الحياة ولا ينفعها ؟!

فاجاب : كلا ، ان الخلاف موجود .. فاعبر البحر وانظر تر الوانا شتى من التباين، ولكنه تباين ليس بين بنى الانسـان كالذى كان، بل خلاف وتنويع فى مناظر الطبيعة وانماط البناء والوان الاكال وصنوف اللهـو والسلوى .. ان افـراد البشر

يختلفون اختلافا فسيحا فى الاشكال والعادات وانواع التفكير فهل يضيف الى هذا التنوع شيئا ان تحارب امة « امة » لتخضعها ؟ هل يضيف الى التباين القائم شيئا ان تثير فى النفوس شعور الوطنية ، وهو حمق وتفكير باطل اساسه التعصب المرذول ؟ . . اننا حين حررنا انفسنا من تلك المهزلة الخبيثة ، تبين لنا فى جلاء ان الخلاف بين الاجناس يعين على الرقى ويعمل على تحقيق سعادة العالمين . فكلنا يسعى الى غاية واحدة ، وهى ان نستغل الحياة الدنيا الى الحد الاقصى ، وقلما ينشأ نزاع على ذلك بين الاجناس ، الا ان اصطنعناه اصطناعا . .

قلت : وما رايكم فى الخلاف بين اهل الامة الواحدة فى الراى ؟

قال : ان الخلاف فى الراى لا ينبغى قط ان يشقق الناس الى احزاب متنازعة متقاتلة .. بل اعلم يا صديقى ان الساسة فى العهد القديم كانوا يدعون ادعاء باطلا انهم مختلفون فى الرأى ليبرروا بذلك الوهم انقسامهم الى احزاب . وغايتهم من هذه اللعبة ان يبتزوا من افراد الشعب مالا ينفقونه على انفسهم فى حياة باذخة مترفة

قلت : ولكن الخلاف السياسى بين الافراد جزء من طبيعة الانسان فيما اظن ؟

فاجاب : طبيعة الانسان ! اية طبيعة تريد ؟ طبيعة الفقراء والعبيد ام طبيعة الاغنياء الاحرار ؟ .. ان نشأ خلاف فى الرأى فذلك امر موقوف زائل لا يبرر ان تدوم الخصومة بين الاحزاب .. فان الناس لا يختلفون فى الامور الشخصية كاللباس والطعام والكتب التى تقرأ والتى لا تقرأ ، وذلك لان الامر فيها

لايمس المجتمع ، اما ان كان ممايتصل بمصالح الناس المشتركة فليكن الراى الفصل لاغلبية الناس ... فلا طغيان لفرد أو لاقلية مستبدة !

وسالت محدثى كيف يحفزون الناس للعمل ان كانت الملكية الخاصة محظورة ، فاجاب : ان جزاء العمل يا صديقى هو « الحياة » ! ألا تكفى الحياة حافزا للانسان على العمل ؟ ..

فاعترضت بان المجيد والمسىء يستويان . فقال : هذا خطأ . ان مكافاة المجيد هى اللذة التى يجدها فى الخلق والابداع . ان من طبيعة الانسان أن يخلق ولا يطالب بأجر على ذلك ، والا لجاءنا الآباء يطالبوننا بأجر على نسل الابناء ! !

قلت : ولكن اهل القرن التاسع عشر يردون على ذلك بأن للانسان ميلا طبيعيا للانسال ولكنه لايرغب بطبيعته فى العمل

فقال : لا ، اننا نكفر بهذا القول ولا نؤمن به . فهو زعم معناه أن العمل شقاء كله ، وليس الأمر عندنا كذلك . بل هو على نقيض ذلك ، لقد بثثنا فى العمل لذة تغرى الناس به ، وليس ذلك بعجيب ، اذ الفنان الحق يستمتع بما يؤديه ، وعمالنا ياخذون العمل على انه فن جميل ، كل يختار ما يستمتع به

قلت : يخيل الى أن هذا التطور فى وجهة النظر الى العمل اهم واعمق مما حدثتنى عنه فى الجريمة والسياسة والملكية والزواج . فكيف تم لكم هذا ؟

فاجاب : تم لنا هذا التغير حين محونا الروابط المصطنعة التى كانت تربط الافراد فيما مضى وتركنا لكل انسان مطلق الحرية فى أن يعمل مايحسنه ويتقيه ، وما علينا الا أن نلائم بين الانتاج وبين مايريده السكان .. . انى اعلم مما سمعت وما قرات أن الناس فى العهد الغابر قد اصابهم السوء حين امعنوا فى كثرة الانتاج

بغير ملاءمة بينه وبين القدر المطلوب . انهم يسروا طرائق الانتاج تيسيرا كبيرا وارادوا ان يستغلوا ذلك الانتاج السهل بان يغمروا السوق بالسلع ، سواء اكان العالم بحاجة الى هذه السلع أم لم يكن ، وقد ضحوا بكل شيء في سبيل « الانتاج الرخيص » ـ كما كانوا يسمونه ـ فضحوا بسعادة العامل في عمله ، بل بصحته وطعامه وكسائه ومأواه وفراغه ولهوه وتعليمه .. بل قل ضحوا بحياة العامل كلها ! اذ لم تكن حياة العامل في نظرهم تزن جناح بعوضة اذا قيست الى الرغبة الجارفة في كثرة الانتاج الرخيص ، مع ان كثيرا جدا مما كانوا ينتجونه لم يكن يستحق عناء صناعته . واعجب العجب أن العامل قد استطاب هذا العيش الاغبر فجاء ذلك مصداقا لما يقال من ان الخنفساء تتعود العيش في الروث ! .. . انهم اخترعوا الآلات ليوفروا العمل ! يا لها من أضحوكة ساخرة ! اعلم يا صديقي أن كل محاولة أريد بها تقليل العمل قد انتهت الى زيادة . أن شهوة الاسواق قد زادت بما كانت تطعم به ، وباتت كل يوم تصيح : هل من مزيد ! فانطلق العالم المتمدين ـ اقصد العالم الذي امتلأ بالشقاء المنظم ـ يغزو البلاد بالقوة والخداع ، ويستر وحشيته بغشاء رقيق يشف عما تحته في غير عسر ! فيزعم أنه انما يطلب انقاذ الانسانية من بيع الرقيق ، مع أن استعباد التجارة أشد واقسى ! أو يزعم أنه يريد ادخال دين جديد مع أن اصحاب ذلك الدين لم يعودوا يؤمنون به ! او يزعم انه يقصد الى انقاذ حاكم ثارت عليه رعيته مع أنه حاكم مجنون سقط بعمله السيء في نفوس مواطنيه « الهمج ! » ... هكذا كان العالم المتمدين يتوكأ على اية عصا صادفته ، فاذا ما تم له الفتح ، فرض مصنوعاته على الاهالي فرضا ، مع انها مصنوعات

لاقيمة لها ، ولنخذ « بدل ذلك » محصولاتهم الطبيعية . وهذا الذى اطلق عليه اسم « التبادل » ان هو الا سرقة ممقوتة !

انـا اليوم لانصنع الامايلزمنا فى حياتنا ، اذ من الجنون ان نصنع سلعا لاندرى من امرها شيئا .. ونصنع اشياءنا على النحو الذى يبعث اللذة فى نفس الصانع ، فان كان عملا ثقيلا على النفس عملناه بالآلات ، وان كان مما يثير استمتاعا صنعناه بالايدى . وليس شاقا على الدولة ان تجد لكل فرد العمل الذى يناسبه وبهذا اصبح العمل متعة للروح والجسد ، واصبح شيئا نسعى اليه ولا ننفر منه

وهنا دق ناقوس الغداء فذهبنا الى ساحة السوق حيث شهدنا حشدا من الناس فى بهو كبير اجتمعوا لياكلوا على موائد عامة ! اما الطعام فشهى لذيذ يدل على ان طهاته مشغوفون بعملهم فاتقنوه صنعا .. ولن ابالغ مهما اطلت القول فى نظافة الاوانى ودقة الخدمة وجمال النظام ...



نبذة عن حياة هـ . ج . ولز

ولد هربرت جورج ولز فى « بروملى » بمقاطعة « كنت » بانجلترا عام ١٨٦٦ من اسرة تقع من طبقات المجتمع فى الدرجة الدنيا من الطبقة الوسطى . وقد استخدم فى صدر شبابه فى متجر الاقمشة ، ثم اشتغل مدرسا مساعدا فى احدى المدارس ، وبعدئذ التحق طالبا بالعلوم يستمع الى محاضرات هكسلى ، ولبث كذلك حتى ظفر بدرجة فى العلوم من جامعة لندن . ومنذ ذلك الحين اخذ يلقى دروسا بتلك الجامعة . واخرج كتبا منها كتابه فى علم الحياة . وطفق يكتب كتابة متصلة فى المجلات حتى ذاع اسمه فى الناس ، ولعل اول ما استوقف انتباه القراء اليه هو قصصه القصيرة التى اقامها على موضوعات علمية . وهذا الضرب من القصص هو الذى جعله من اوسع الكتاب شهرة فى ارجاء العالم فى هذا العصر ، واصدق مثال لهذا النمط من مؤلفاته قصته « آلة الزمان »

وولز يدين بمذهب الاشتراكية ، وقد كان عضوا فى جمعية « الاشتراكية المعتدلة » ، ولكنه انفصل عنها فيما بعد ، وشق لنفسه طريقا خاصة به فى تعميم آرائه الاشتراكية ، فاخذ ينشر فيها الكتب تباعا فى صور مختلفة ، من ذلك كتابه « الاشتراكية والزواج » وكتاب « عالم جديد مكان عالم قديم » ومجموعة فصول سماها « آمال مرقوبة » وكتاب « الانسانية فى دور التكوين » وكتاب « يوتوبيا جديدة » وهو الذى عنينا بتلخيصه هنا وقد اصدره عام ١٩٠٥ ... ولم يلبث ولز ان انصرف بكل عنايته الى هذه الدراسة الاجتماعية

حتى جعلها محورا يدور حوله ما يكتب من قصص .. حتى اذا ما وضعت الحرب اوزارها اخذ يفكر وينشر فى اعادة تنظيم العالم من جديد ، على انه حقيقة واحدة متصلة لا تفرقة بين اجزائهـا . ومن اهم ما اخرجه لتحقيق هـذا التنظيم الجديد هو كتاب « الانسـان : عمـله وثروته وسعادته (١) »

هكذا ترى ان انتاج « ولز » الادبى قد انعرف معظمه نحو اصلاح العالم على اساس اشتراكى معقول ، وستراه فى هذا الكتاب الذى نوجزه ، يقدم الصورة المثلى التى يرجوها للناس فى هذه الحياة الدنيا

يوتوبيا حديثة

كانت المدائن الفاضـلة التى سبقت عصر « دارون » تصور الدولة المثاليـة كائنـا آسـنا لا يتحـرك ولا ينمو كأنمـا هو قد بلغ حد الكمال ، وكان الدولة قد كسبت لنفسها اسـباب السعادة وتخلصـت من الوان الاضطراب والقلق والفوضى الى ابد الآبدين . نعـم ؛ كانت امنية الفلاسفة قبل دارون أن تتالف الدولة من شعب قليـل فاضل سعيد متشابه الافراد ، ثم تعقبه اجيال واجيال صبت على غرار الصورة السابقه ، وهكذا حتى يقضى الله فى العـالم امرا كان مفعولا . واذن . فلم يكن كتاب المدائن الفاضلة قبـل نظرية التطور يعترفون بضرورة التغير والتحـول فى الـدولة وافرادها . أما « اليوتوبيـا » الحديثه » فاول ما تنشده ان تكون الحياة متدفقـة متطورة عصرا بعد عصر ، فلن نصورها دوله كتب لها الدوام ، ولكنـا سنرسم حالة نعترف انها حلقة من سلسلة متصلة كان قبلهـا حلقات وسياتى بعدها حلقـات الى غير نهاية معروفة . فلست

---

(١) قد ترجمنا منه فصولا ونشرناها بعنوان « الاغنياء والفقراء »

اليوم احاول أن أصد تيار الحياة الجارف كما حاول السابقون ، بل أريد أن أطفو على ذلك التيار لافيد بعنفه وقوته .. فلو مثلنا المدينه الفاضلة القديمة بحصن مكين القوائم لا يحول ولا يزول ، كانت مدينتي الفاضلة التى ارجوها اشبه شيء بدولة سابحة على ظهور السفائن لا تنفك متحركة متغيرة وذلك هو الفارق الاول بين « يوتوبيا » أقيمها على الآراء الحديثة وبين السوابق التي انشاها كتابها على الافكار الماضية .

اريد ان أصور حياة يمكن عقلا أن تظهر فى عالم الوجود بحيث تفضل الحياة الراهنة . ولن أخطىء كما اخطأ السالفون فأشير بقلب طبائع الانسان والاشياء ، وبأن يكون أفراد الناس جميعا على قسط موفور من الحكمة والتسامح والنبل والكمال . ولن ادعو الناس الى حال من الفوضى المتسقه فانادى بأن يعمل كل فرد مايروق له ، زاعما ان أحدا لن يطيب له أن يؤثر الشر . فليس مثل هذا العالم الكامل من ممكنات الزمان والمكان ، ففى الزمان والمكان تسود « ارادة الحياة » التي لابد أن تستتبع اوانا من الظلم .. وساحاول ما استطعت ان اكون عمليا فى التفكير فأحدد نفسى بما هو فى مقدور الطبائع البشرية كما هى اليوم ، وسارسم الدوله المثلى فى عالم تتعاقب فيه الفصول وتتقلب ، وتنزل بالناس الكوارث المفاجئه والامراض الفاتكة ، وساصور الناس بحيث أعترف لرجالهم ونسائهم بالعواطف المتغيرة والرغبات المتقلبة فانا اسلم بأن العالم قائم على صراع وتنازع ، وفى هذا أيضا اخالف أسلافى من كتاب المدائن الفاضلة .

ولكنى ان اعترفت بمبدأ الصراع بين الاحياء فسأطلق لنفسى كل حرية فى تصويره بحيث لا اعدو حدود

العقل البشرى كما اعلمه ، وساطلق لنفسى كل حرية كذلك فى تصوير بناء الوجود الذى فى مقـــدور الانسان أن يبدله اذا اراد ، لانه هو الذى صنعه لنفسه بارادته، فساصور كيف شئت المنـــازل والطرق والملابس والقنـــوات والآلات والقوانين والتقاليـــد والحدود والعهود والمـــدارس والادب والدين والعقائدوالعادات وما الى ذلك مما يســـتطيع الانسان أن يبدله .. واحسب أن ذلك هو الاساس لكل مدينة فاضله قديمة أو جديدة ، أعنى ان نحرر الانسان من تقاليـــده وعاداته وقوانينه ، ومماتستتبعه الملكيه الخاصة من اســـتعباد ورق . . واحسب ان كثيرا من الآراء النظرية التى قالهاأصحاب المدائن الفاضلة فيمـــا مضى ، تنحصر قيمته فى هذا الســـعى نحو الحريه الانسانية، فللانسان رغبة أبدية خالدة فى ان يفلت من قيوده ، وفى مقاومة ماتخلف من آثار الماضى ، وفى أن يبتكر ويسعى وينتصر ..

ان المدائن الفاضلة القديمـــة معيبه لان حرارة الحياة الواقعة ودماءها لا تسريان فى أجسامها. فليس فيها أفـــراد متميزة أشخاصهم ، ولكنها كانت تقتصر على « ناس » على وجه التعميم . . وانت تلمح فى كل المدائن الفاضلة السابقة - ما عـــدا موريش - ابنية جميلة ولكنهـــا تخلو من الشخصيه الجزئية ، وترى حقولا منســـقة كاملة ، وجماعات الناس تروح وتغدو فى صحة موفورة وسعادة وثياب نظيفة جميلة ، دون أن يكون هنالك تمييز بين أشخاصهم .

وأنا اشك فى ان أحدا يود ان يكون فردا فى جمهورية افلاطون على الرغم مما بها من حسنات ومزايا .. واشك فى ان يطيق شخص البقاء شهرا واحدا بين الفضيلة الخالصة التى رسمها « مور » فى أرضه المثلى .. ان الحياة الشخصيه فى لبها عبارة عن صراع متصل مفيد ، ولست ارى غايه لليوتوبيا ســـوى أن تصلح هذا الصراع

واليوتوبيا الحديثة لم يعـد يكفيها من رقعة الارض أقل من كوكب بأسره ، فقد انقضى الزمن الـذى كان يكفى للـدولة المثلى واد منعزل او جزيرة موحشة ، فالتفكير الحديث لا يسيغ العزلة للدولة ، والاختراع الحديث يعمل مسرعا عـلى ربط أطراف الارض بعضها ببعض ، ولن تستطيع دولة ان تعتزل فى وادأوفى جزيرة خشية الاعداء الغـزاه ، لان الطائرات لاتعجزعن ان تهبط حيث شاءت ، ولا تعرف عزلة تعـز عليها . فالدوله التى تقوى اليوم على الاعتزال بنفسـها يجب أن يكون لها من القدرة ما تستطيع به أن تحكم العالم ، واذن فيجب أن تكون الدولة المثلى عالميـة تشمـل الارض بأسرها . . فلسنا نستطيع فى هذا العصر ان نقيم اليوتوبيا فى أواسط افريقيا او فى جنوبى أمريكا او حـول القطب ، بل لا بد لنا من كوكب بأسره . .

سنختار اذن لدولتنا المثلى كوكبا يشبه هذا الكوكب الارضى الذى نعيش على سطحه ، بما فيه من قارات وجزائر ومحيطات وبحار . . سيبلغ الشـبه بينه وبين الارض حدا بعيـدا بحيث لو ذهب اليه عالم نبـاتى لما عز عليـه أن يجد كل صنوف النبـات التى عهدها فوق هـذه الارض . .

وذلك ما حدث . فقد كنت بصحبة صديق عالم بالنبـات عند جبال الالب ، فانتقلنا فى مثل لمح البصر الى كوكب جـديـد يشبه ارضنا شبها تاما ، بحيث لم نلحظ تغيرا فى الموقف ، فلم تنقص سحابه من الفضاء ولم تغب شجرة أو صخرة مماكان على مقربه منا على الارض . . ومع ذلك فلم نلبث ان اخـذنا فى الشعور بوجوه الخلاف شعورا قويا غامضا ، وذلك حين شهدنا رجلا يرتدى ثيابا عجيبة ويتكلم لغة لم نألفها . . وسرعان ما لاحظ صديقى أن الدب الاكبر لا يظهر فى السماء ، وهنا أدركنـا على الفور أن الارض لم تتغير ، ولكننا نحـن الـذين هبطنـا الى أعمق اعماق المكان فأصابنا التغير .

واول ما علمناه ان ذلك الكوكب تسوده لغة واحدة يفهمها كل فرد من افرادها ، وذلك لانهم تبينوا أن اختلاف اللغة حائل لعين ممقوت يبعث النفوس على التنافر - « فانا يا صديقى ان كنت ازاءك كالاصم الابكم ، كنت عدوك اللدود » .. واللغة علمية واضحة لا غموض فيها ، تبلغ من الوضوح مبلغ القوانين الرياضية ، فتصريف الافعال مطرد لا شذوذ فيه وكل كلمة تتميز عن غيرها فى المعنى والهجاء وهذا وحده دليل كاف على ان الاساس العقلى لبنى الانسان قد اصلح ، وان قواعد المنطق ونظم العدد والقياس قد اعدت اعدادا صالحا .. . واللغة مؤلفة من مجموعة لغات كما تتالف الانجليزية من اللغات الانجلو سكسونية والنورماندية واللاتينية . اننا لا نريد ان تحيا لغة وتموت اخرى ، بل نحب أن تندمج اللغات كلها فى لغة واحدة حية قوية .

واذكر ان اول ما اردنا ان نطالب به حين هبطنا كوكب اليوتوبيا الحديثة هو حريتنا الشخصية .. ان المدن الفاضلة القديمة لم تبد نحو الغريب الا حبا ضئيلا يكاد ينعدم ، ولكن العصر الحديث قد خلق فكرة التسامح ، واليوتوبيا الحديثة العالمية انما ترتكز على الافكار الحديثة

فالحرية الفردية فكرة ازدادت اهمية ، وما زالت تنمو كلما تطور الفكر الحديث . أما كتاب المدائن الفاضلة القديمة فقد اعتبروا الحرية شيئا تافها ، وظنوا ان الفضيلة والسعادة لا ترتبطان بالحرية ، وانهما أكثر اهمية منها . لكن الرأى الحديث يتمسك بالنزعة الفردية ، ولذا فهو يتشبث بحرية الافراد ويزيد من قيمتها ، ولعلنا مدركون عصرا تكون فيه الحرية هى لب الحياة ولا حياة بغيرها ، او ان شئت فقل ان الحرية هى الحياة ، وان الجماد الميت الذى لا اختيار له هو وحده الذى يعيش

فى طاعة مطلقة للقوانين .. ان الحرية الفردية من وجهة النظر الحديثة هى انتصار الوجود على العدم ، هى انتصار الوجود انتصارا ذاتيا ، كما ان التناسل والخلق انتصاره الموضوعى . ولكن الانسان حيوان اجتماعى ، فلا ينبغى اذن أن تنال ارادته من الحرية حدا مطلقا من كل قيد ، لان الارادة الحرة الخالصة لاتتوافر الا لطاغية يصدع العالم كله بأمره ، وعندئذ تكون الارادة معناها التنفيذ .. أما ما عداذلك من صنوف الحرية فمعناه التوفيق بين ارادتنا وارادات من نعيش معهم فى مجتمع واحد . فأبناء الدولة المنظمة يعلم كل منهم ماذا يجب ان يؤديه لنفسه والناس ، وماذا ينبغى للناس أن يعملوه له ، أعنى أن كل فرد يحد تصرف الآخرين بحقوقه كما يحدونه بحقوقهم وبما يمس سعادة المجتمع فى مجموعه

وقد ينكر غلاة المذهب الفردى حدود الحق والواجب ولكنهم مخطئون . فالمنع قد يزيد من مجموع الحرية والمنح قد ينقص منها . فلا يتحتم ـ كما يذهب متطرفو المذهب الفردى ـ ان تزداد حرية الانسان كلما قل القانون المفروض ، وأن تثقل قيوده . كلما كثرت مواد القانون . فالاشتراكية او الشيوعية ـ وهما قائمتان على مجموعة منظمة من القوانين ـ ليس حتما ان تؤدى الواحدة منهما الى الاستعباد والرق . وكذلك الفوضى الناشئة من محو القانون ليس فيها من الحرية شىء . فانظر مثلا كم نكسب من الحرية حين يحرم علينا القانون ان نزهق نفوس الآخرين ! فانت تستطيع ان تجوس خلال العالم كله لايثقلك سلاح ولا يفزعك خوف ، أعنى انك حر من الو... المخاوف والمخاطر ودواعى الحذر

فرجاء العالم فى اليوتوبيا الحديثة ان تمحو الدولة كل ماليس يلزمنا من ضروب الحرية ، اذ الاسراف فى منح الحرية

مضيع للحرية . فواجب الدولة الا تجيز حرية واحدة اكثر مما ينبغى ، وذلك يتيح الناس اقصى حدود الحرية العامة .

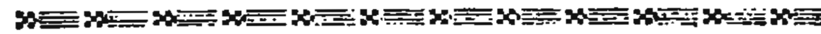
وهنالك وسيلتان للحد من الحرية : النهى : « يجب الا تعمل كذا » والامر : « يجب أن تعمل كذا » . وثمة ضرب من النهى يصاغ فى صورة الامر الشرطى : « اذا عملت كذا وكذا فيجب كذلك ان تعمل كذا » مثال ذلك « اذا نقلت قوما عبر البحر فيجب أن تحملهم فى مركب متين » ... فالنهى معنـــاه أن تنتقص من حرية الانسان المطلقة جـزءا ، ثم يبقى له ما عدا ذلك مجـال فسيح من الاختيار لا حد له ، فهو لا يزال حرا يسبح فى محيط الحياة كيف شاء ، لانك لم تاخذ منه سوى حفنة من ماء ! ! اما الامر فهو معول يهدم الحـرية ويدكها دكا . ولذا فسنعمد فى اليوتوبيا الحديثة الى النهى دون الامر ، وان اضطررنا الى الامر فى بعض الحـالات ، فذلك نادر لا محيص لنا عنه

وما هى ضروب الحرمان التى نفرضها ؟ اولا لا يجوز أن تكون للفرد حرية القتـل والتهديد ، وكذلك لا ينبغى لنا ان نمس شيئا ليس لنا ، فقد يكون ملكا لغيرنا او ملكا للدولة ، حتى نعلم فكرة اليوتوبيا عن الملكيـة .. . ولنا حرية مطلقة فى الذهاب الى حيث شاءت نفوسـنا ، وليس ذلك باليسير ، فحـرية الحـركة من أجل نعم الحياة : اعنى أن يكون للفـرد حـق الذهاب الى حيث تدفعه رغبته ، وأن يرتاد الارض من أقصـاها الى أقصاها ليرى ما بها . ان الدولة مهما بسطت كفها فى منح الحرية لافرادها وفى تهيئة الرفاهية والامن والنظام ، فلن يشعروا بالسعادة اذا حرمتهم نعمة الحركة . للانسان المتمدين رغبة فى حـرية الحـركة حيث شاء ، ورغبة أخرى فى ان يكون له مكان خاص به يحرم على غيره أن يعتدى عليه ، وعلينا أن نرسم الحد الفاصل بين هذين .. ان رغبة الملكية الخاصة المطلقة التى لا يشاركك فيهـا احـد سـواك

ليست قوية ملحة فى الانسان . ففى الكثرة الغالبة من افراد البشر تبلغ غريزة الاجتماع من القوة حدا تصبح معه العزلة مصدر الم شديد ، الا ان كانت عزلة مؤقتة قصيرة الامد . ان الانسان بطبيعته لايريدان يختص لنفسه بشيء سوى افكاره التي تضطرب فى راسه ، وهو يؤثر ان يلقى العذاب مع الناس على ان ينفرد وينعزل . ولكن هنالك صنفا من الناس يستشعراللذة فىالوحدة والعزلة ، هناك من الناس من لاينام نوما هادئا او يفكر تفكيرا مثمرا ، اويقدرجمال الاشياء الا وهو معتزل ، ومن اجل هؤلاء النفر يجب ان نرسم الحدود التى تحد من حرية الحركة . وان العالم لتسوده فكرة ان يكون للفرد مكان خاص به ، لا ليعتزل فيه ان اراد فحسب ، بل ليضم اليه فيه من يشاء من الرفاق .

كان المجتمع المثالي فيما مضى ذا عقيدة واحدة يؤمن بها الجميع ، وعادات واحدة واعياد مشتركة واخلاق بعينها عند الافراد جميعا ، وثياب لاتختلف فى فرد عنها فى فرد آخر من

طبقته . فكل الناس يحبون ويعبدون ويموتون على نمط واحد .. نعم كان الاتجاه الطبيعي الذي يغلب على الشعوب ، ابيضها واسودها على السواء ، هو ميل مطبوع نحو تشابه الافراد والتوحيد بينهم ، وهو ميل يسعى التعليم الى محوه وهدمه .. كان الفرد فيما سلف اذا شذ في لباسه او طعامه او سلوكه بصفة عامة ، كرهه المجتمع ونبذه غير ان طبيعة الحياة لم تبخل على الانسانية عصرا بعد عصر بالعقول الجريئة المبدعة المنشئة التي تنزع باصحابها نحو الخروج على ما تواضع عليه المجتمع ، ولولا شذوذ هؤلاء لما تقدم البشر خطوة واحدة نحو الكمال ... اما اليوم فقد أضحى التجديد والابتكار والاصالة في الفكر والتصرف أيسر جدا مما كانت في العهود الغابرة ، وذلك بفضل تطور الآلات وكشف المواد الجديدة وظهور نظم اجتماعيه جديدة . ولذا ترى التقاليد في كل مكان تتقوض دعائمها ، والاستمساك بالآراء والعقائد القديمة تندك قوائمها ، ولكن لم يملأ مكانها حتى اليوم تسامح يشمل اجزاء العالم كله ، ولم يحل محلها اعتراف صريح



يجيز للافراد ان يتبـــاينوا فى التصرف والتفكير ، ولم تظفـر الانسانية بعد بسعة الفكر وبعد النظـر .. أما أهل اليوتوبيـا الحديثة فأيسر عليهم من سكان هذه الارض أن يأكلوا فى الملأ ، وان يستريحـوا ويستمتعـــواويعملوا علنا فى غير حياء ولا خجل .. واحسب مطالبة الناس على هذه الارض ان يكون الفرد مكان خاص به يفعـــل بين جدرانه مايشـاء ، خطـوة انتقـال بين مرحلتين من العلانية ، علانيـة فى التصرف كانت تسود فى الماضي وكانت ترجع الى مابين الافرادمن تجانس ، وعـلانية ستقوم قوائمها فى المستقبل عـلى ذكاء الافرادوحسن تربيتهم وتنشئتهم .. ومع هذا الاتجاه الجـديد ،ستحتفظ يوتوبيا الحديثة بحق الافراد فى خصوصية الدار

ولن تقتصر حرية الحركة فى اليوتوبيا على اطلاق سراح المشاة يجوبون حيث يشـــاءون ، بل ستشـــمل ارجاء العالم بأسره فسيكون العالم امة واحدة تتكلم لغة واحدة ، وهـذا معنـاه ان يأخذ الناس فى الرحلة والسفرمن طرف الى طرف على نحـو من الكثرة والسرعة لم يعهد له العالم مثيلا من قبل .. وقـد دلتنا التجارب فى هـذه الارض الى أنه اذا ما ارتفعت القيـــود الاقتصـــادية والسـياسية عن احدى طبقات المجتمع ، اخذت على الفور تتاهب للرحلة والسفر فى بلاد الارض قاصيها ودانيها وانت اذا بحثت فى انجلترا مثلا الفيت الطبقة التى يبلغ دخلهـا خمســمائة جنيــه كل عام قـد سافر افرادها كلهم خارج البلاد ، ويندر جدا ان تجد بينها واحدا لازم أرض الوطن طوال حيــاته .. وفى اليوتوبيا الحديثة سيكون السفر جزءا من صميم الحياة ، لا مجرد ترف يستمتع به الاغنياء وحدهم . لابد ان تهيأ الفرصة لكل انسان كائنا من كان ليرتحل فى مختلف البلاد فيرى صنوفـا لم يعهدها من الاجواء والمنـاظر والوجوه والمنــازل والطعـوم ، والوانا لم يألفهـــا من الشـجر والنبـات والزهر والحيـوان ، ويصــعد الجبـال الشـامخـة ،ويحس زمهرير الليل فى اقصى

الشمال وهجير الشمس فى المناطق الحارة ، ويسير بحذاء الانهار الكبيرة ، ويتذوق العزلة فى مهجور الصحراء ، والوحشة فى الغابات ، ويعبر المحيطات والبحار ..

سيفتح العالم فى يوتوبيا الحديثة ابوابه للجميع وسيهيىء الفرصة للجميع ، وينشر الامن فى ربوع الارض ليطمئن المسافرون وستتألف بلدان العالم كلها غدو الراحلين ورواحهم ، فاينما حط المسافر رحاله وجد وسائل راحته .. نعم ، سيصبح الجزء الاكبر من سطح الارض فى مقدور كل انسان ان يراه من حيث سهولة الانتقال ورخص الاجور . فاذا منح الانسان حرية السفر دون ان تقوم فى وجهه حوائل اللغة والمال والعادات والقانون ، فما احسبه مكتفيا بمكان ضيق من الارض يحصر نفسه فيه حتى يموت . وان هذا التزاحم الكثيف فى بعض جهات العالم لدليل ناهض على العقبات التى تصد الناس عن السفر ، واغلب الظن ان الانسان آخذ اليوم فى طور جديد من حياته .. هو طور السفر

ووسائل السفر عند اهل يوتوبيا متعددة ، ولست تجد بينها هذا القطار بدخانه الخانق ، فقد امتدت فى ارجاء يوتوبيا شبكة من الخطوط ، كأنها نسيج العنكبوت ، فتراها تخترق الجبال وتسير تحت البحار بسرعة تتراوح بين مائتى ميل فى الساعة وثلاثمائة ، وهذا معناه محو الشقة التى تباعد بين البلاد . والقطر هناك ممتعة مريحة تقرا فيها وتلعب وتنام فلا تحس شيئا من عناء السفر ... وقد حرص اهل يوتوبيا على ان يبقى الحصان فى السهول ليستمتع من اراد الركوب ، وان تظل الجمال فى الصحراء والفيلة فى بلاد الشرق الاقصى والبغال على قمم الجبال ، ولكنهم فيما عدا ذلك جعلوا وسائل النقل كلها آلية سريعة .

وهـذا التيسـير فى السـفرسيجعل من اهل يوتوبيا اقواما مهاجرين ، لاتنفك الجماعة منهم ان تنتقل من بلدها الى بلدآخر تستقر فيه اذا طاب لها ذلك . ان المدائن الفاضلة القديمة كلها كانت حريصة على ان تثبت فى مكان معين ، اما يوتوبيا الحديثة فستحل هذه القيود . اننا نرى بوادر الانتقال فى حيـاة هـذا العصر ، فلم يعد عجيبا ان ترى الرجل ينتقـل ثمانين ميـلا من داره الى مكان عمله ، او يسـافر خمسين ميلا ليلعب الجولف فى وقت الفراغ ، وبات مالوفا عند الناس جميعا ان ينتقل الرجـل فى الصيف الى مصيف بعيد .. اخذت هذه البوادر فى الظهور ، ولا يمنع زيادتها زيادة سريعـة الا سوء المواصلات ، وكل رقى وتحسين فيها سيعمل حتمـا على زيادة انفصال الانسان عن المكان ، ان اهل يوتوبيا يأبون ان يستعبدوا أنفسـهم لبقعة من الارض ، ولا يرضى احد منهـم ان يستقر فى مكان واحـد ليؤسس اسرة الا بعد ان يري مايستطيع ان يراه من بلادالعالم

اننـا اذا حللنـا هـذه القيودالمكانية التى تنقض ظهور الناس بعبئهـا الثقيـل ، نشـأ توزيع جديد لعوامل الحياة ، فأسباب الحياة تزدحم اليوم حول مصادرالثروة كالمناجم والمزارع وماالى ذلك . واما فى يوتوبيا الحديثة فسيكون مكان العمل غير مكان السكن والاقامة ، اذا كان الاول لا تتوافر فيـه وسـائل النعيم والصحة

فاذا ما أقبل الصيف ارتحلت الاسر الى ذرى الجبال ومعهـم المدارس والاطباء ومن الى هؤلاء ثـم يكرون راجعـين فى اوائل الخريف .. ويعمل اهل يوتوبيا الحديثة على اطالة مدة التعليـم للاطفال ، وتبذل الدولة جهدها فى ان تقلل من عدد الاطفال الذين ينشأون فى بلد حار او فى وسط سيء

وقد وجـدت الحب فى ارض يوتوبيا مطلقا حرا لاتغله القيود ، فلكل رجل او امراة ان يحب من شاء

والجامعات مراكز نشيطة بالتجارب العلمية ، حتى ليخيل اليك ان « بيت سليمان » الذى اقترحه بيكون فى اطلنطس الجديدة قد خرج الى حيز الوجود . ولا تكاد تصل احدى الجامعات الى حقيقة علمية حتى تبعث بها الى انحاء الارض طرا فى مثل اللمح بالبصر ، وبهذا يكون المشتغلون بفرع من العلم كأنهم اعضاء من جماعة واحدة متضامنة ولذا ترى الابحاث العلمية فى يوتوبيا الحديثة تسير بسرعة النسر اذا قيست الى تخبط الاعمى الذى تسير به البحوث على هذه الارض

والقانون فى يوتوبيا يقف موقفا معتدلا معقولا فى التوفيق بين رغبات الاشخاص وخير المجموع . . فهم فى مشكلة الخمور مثلا يتبعون نظاما كالذى يقوم بيننا على الارض ، فتقيد الدولة الامكنة التى يضح فيها شرب الخمور وتحمى الاطفال منها ، وتفرض عقوبة على الاغراء بها . ولكن الناس هنالك يفهمون وسائل صيانة الصحة ويعنون بها اكثر مما نفعل فى هذه الدنيا . واحسب ان نصف الخمور يشربها الناس هنا لتخفيف عبء الحياة الثقيل ، ولكن هذا اللون من الحياة الممقوتة لا يعرف لها اهل يوتوبيا معنى ولا يرون لها اثرا . فهم يأكلون ويشربون فى اعتدال . وانى لأوثر ان يبقى الناس على بعض الخمور الجيدة مع تقديرى واحترامى لمن امسك نفسه عن الشراب امساكا قاطعا ، أقول هذا لانى أؤمن فى يقين انى انسان معرض للخطأ ، واحذر من شرب القهوة لانها تمزق المخ وتتلف الكليتين ، ومن شرب الشاى لانه يدبغ المعدة ويجعل منها شيئا يقرب من جلود القرب وخير منهما ان نشرب قليلا من جيد الخمر

ان يوتوبيا بكل مالاهلها من فضيلة وتربية عالية وحرية ووحدة عالمية ولغة مشتركة ورحلة دائمة وتحطيم للحوائل الاقتصادية ستظل حلما لا يتحقق حتى تستطيع أن تكفى نفسها بنفسها من الناحية

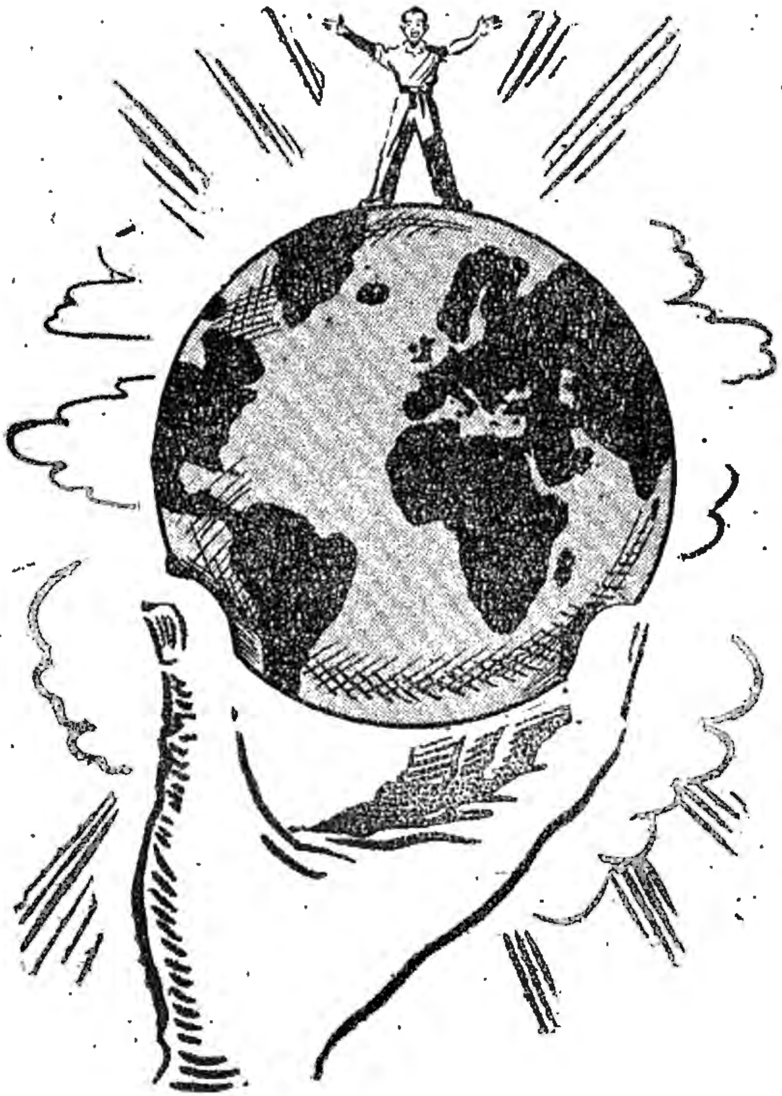
الاقتصادية . فالحرية الممنوحة للافراد لا يجوز أن يكون بينها حرية أن يظل الانسان بغير عمل يؤديه . فكل نظام وكل أمن لابد له من عماد قوى يرتكز عليه ، وهو أن يوقن الناس بأن العمل سيجد من يؤديه .. فكيف يتم العمل على ذلك الكوكب ؟

أول مانشير اليه فى الحيـــاة الاقتصادية فى مثل تلك الدولة التى اتسعت حتى شملت كوكبا بأسره ، والتى داب إهلهـا عـلى الارتحال المتصـــل ، انه لابد من وجود شىء يدل على توزيع الخدمات والسلع بين النـاس ، أعنى انه لا بد من نقود للتعامل .. ولقد حدث فعلا انى وصديقى عالم النبات قد عثرنا أول هبوطنا فى كوكب اليوتوبيا على قطعة من الذهب من نقود تلك البـلاد ، رجحنا انها كافية لحياتنا يوما حتى نجد فى تلك الارض مستقرنا .. لقـد كانت المدائن الفـاضلة القـديمة تنفـر من الـذهب ، حتى زعم «توماس مور» انه علامة الضعة والتـدهور ، وكـذلك لم يرض افلاطون أن يدخل الذهب فى نظام جمهوريته ، ولكنـه عاد فأجاز استعمال النقود حـين عدل من آراء الجمهـــورية فى كتـــاب « النواميس » . ان هؤلاء الكتاب الذين تمنـوا للذهب أن يختفى من وجـــه الوجـود ، قـد سلكوا سبيلا ضـالة تعـزى الى سرعة القضاء فى مشكلة معقدة تتطلب دقة التفكير وعمقـه .. أن الذهب عنصر لا غنى للحياة المتسقة المستقيمة عنه . انهم ازدروا الذهب ومحوه من مجتمعهم الذى صـوروه ، كأن الـذهب سـبب الضـعة والمهانة وليس أداة فى يد الانســان يوجههـــا حيث شاء . ان الذهب لابأس به ولا سوء ، ولان تمحوه من وجه الحياة وتصـب عليـه الزراية والغضب كأن تعاقب الخنجـر لان مجرما اتخذه أداة يزهق بها الارواح !! لا ، ان المال اداة صالحة للحيـاة الطيبـة لو استخـدم استخداما صحيحا ، بل هو اداة ضرورية ليس عنهـا محيص فى الحياة المتمدينة ، وان يكن نظاما

معقداً فليس فى ذلك باس ، لانه كائن كسائر الكائنات اخذ ينمو ويتعقد كلما نما . فلست استطيع ان اتصور حياة يصح أن يطلق عليها اسم المدنية اذا لم تقم على دعامة المال ، فهو عصارة الحياة فى جسم المجتمع ، اعنى انه يوزع الغذاء ويمكن المجتمع من النمو والتمثيل والحركة والنشاط . فالمال فى لبه معناه التوفيق بين حرية الفرد فى التصرف مع خضوعه لعلاقته الاجتماعية بسائر الاعضاء ، وماذا غير المال يستطيع ان يتيح للفرد هذا القدر من الحرية الشخصية ويدفعه فى الوقت نفسه الى النمو والنشاط

لابد اذن من المال فى الدولة المثلى التى نصورها ، والذهب افضل المعادن لذلك ، وان يكن اقل مما نرجوه كمثل اعلى لانه معرض للتدهور فى قيمته اذا ما استكشف له مصدر جديد ، وزيادة الذهب او نقصه يؤدى الى ارتجاج عنيف فى الصلة القائمة بين الدائن والمدين .. انى لاتمنى ان تكون وحدات المجهود الجسمانى مقياسا لقيم الاشياء ، وعنده أن المثل الاعلى للعملة هو أن تصدر السلطة القائمة اوراقا مالية تمثل هذه الوحدات ، بحيث تكون قيمة الاوراق واحدة فى ارجاء العالم ، لان الرحلة من مكان الى مكان ستزداد كثرة وسرعة

ان فئة قليلة جدا من علماء الاقتصاد فى ارضنا هى التى استطاعت أن تخلص نفسها من شوائب الوطنية والسياسة اما فى اليوتوبيا فلن نرى شيئا كهذا لان الدولة عالمية لاتعرف حدودا لاوطان ، ولا تفهم معنى للصادرات والواردات ، نعم لن تقوم الشئون الاقتصادية فى اليوتوبيا على قاعدة نفسية باطلة ، ولكنها ستكون اشبه بعلم الطبيعة فى دقته .. . ولعل أم المشاكل الاقتصادية فى اليوتوبيا هى كيف نوزع النشاط المادى وكيف نطبقه ، ذلك النشاط الذى لايفتأ يتزايد بفضل تقدم



يجب أن تكون الدولة المثلى عالمية تشمل الارض بأسرها

العلم السريع . ان النظام النقدى الذى اقمناه على اساس مقدار الذهب الموجود ، وهو مقدار ضئيل ، والذى سار العمل وفقه حتى اليوم ، نظام فاسد لانه معرض للتغيرات الكثيرة ، وهو لايمهد الطريق الى سعادة الناس . اما فى يوتوبيا فيتخذون معيارا للتقويم غير هذا .

بل ان يوتوبيا لاتعرف شيئا اسمه « علم الاقتصاد » فكثير مما نعده مسائل اقتصادية هو فى حقيقة الامر جزء من « علم النفس » عند اهل يوتوبيا . فعلم النفس عندهم قسمان : علم نفس الافراد ، وهو عبارة عن دراسة العقل . وعلم نفس العلاقات التى تربط الافراد ، وهو دراسة شاملة لعلاقة الناس بعضهم ببعض فى كل ما يمكن ان يقع بينهم من صلات ، وان شئت فسم هذا القسم : علم اجتماع الناس : اجتماع افراد الاسرة ، والجيران ، واعضاء الشركات والجمعيات على اختلاف الوانها ، والحكومة والدولة . واذن فالاقتصاد باعتباره علاقة تربط الافراد بعضهم ببعض ، جزء من هذا العلم العام - علم الاجتماع .. وهم يقسمون علم الاقتصاد نصفين : نصف طبيعى يبحث فى كيف نستمد الثروة من الطبيعة ، ونصف يبحث فى تقسيم العمل وتنظيم المجتمع بحيث يظفر الناس بثمرات الانتاج فى جو من الحرية الشخصية

وان ما ندعو اليه من وجوب التخلص من قيود التقاليد وتجرر الافراد من اغلالها ، يأخذ به اهل يوتوبيا ، وهو يعينهم جدا فى دراستهم الاقتصادية ، اذ يحللون ويبحثون فى كل نظام مهما تكن درجة رسوخه فى نفوس الناس ، ليروا ان كان صالحا حقا او لم يكن .. . اما نحن فى هذه الارض فبحوثنا الاقتصادية ضرب من التخبط لانها مرتكزة على طائفة من الآراء والتقاليد لم نضعها موضع الدرس والتحليل ، فلابد من ثورة على علم الاقتصاد كما

هو اليوم ، لانه كتلة من الضباب الكثيف يسبح فى واد فلا ندرى من اين جاءت ولا الى اين تسير .

كانت المدائن الفاضلة القديمة دولا صغيرة ، لا فرق فيها بين الاسرة والسلطة المحلية والحكومة العامة ، حتى لقد ذهب افلاطون بالشيوعية الى اقصى حدودها ـ الى حد الشيوعية بين الازواج ! وانكر « مور » الملكيــة الخاصة وذهب الى أن تكون السلع مشاعا للجميع ، وذلك بعينــه ما دعا اليه « مورس » فى « الارض التى لاوجود لها » اما هذه « اليوتوبيا » التى نكتبها فى مستهل القــرن العشرين (١) فلا بد ان تفيــد كثيرا من آراء الحزب الفــردى من جهة اخرى بعــد ان دام بين الفريقين تناظــر فى الــراى دام قرنا كاملا . فقد جعل النقاش بين الجانبين يعدل من تطــرف الحزبين حتى اقتــربا واصبح متعذرا ان نختار منهمــا مذهبا لدولتنا المثلى التى نصــورها ، ويحسن ان ناخذ من كل منهما بما يصلح ... ان الفـــردية والشيوعية كليهمــا تجعــل من الناس عبيــدا ارقاء . فالاولى تجعلنا عبيدا للاغنياء والثانيــة تجعلنا عبيدا للدولة ، وليس من شانى هنا ان اقــرر اين يقــع الصواب ، ولكنى اقــول انه اذاما استقرت سياستنا واقتصادنا على اساس اشتراكى كنا اقرب الى ما يدعو اليه المذهب الفردى ... ان الدولة المثلى يجب ان تدفع بنفسها فى طــريق التقدم ولا تثبت على حال آسنة راكدة ، فلا يجوز ان تقصر مجهودها على توفير الطعــام والثيــاب والامن والصحة وما الى ذلك ، بل يجب ايضا ان تمهد الطــريق للابتكار والابداع ، وانى لازعم ان العالم لم يخلق الا من اجل غاية واحدة : هى الابتكار ، ووسيلته الى ذلك هى الابتــكار نفســه ، فالخلق والابداع وســيلة وغاية فى آن معا . والمذهب الفردى هو الذى يهيىء الجــو الصــالح للابتكار

---

(١) كتب ولز هذه اليوتوبيا سنة ١٩٠٥

المنشود ، اعني ان كل رجل وامرأة ينفسح امامه او امامها الطريق لتقرير فرديته وشخصيته فيحطم التقليد الشائع ، ويعتدى على العرف الجارى ، ويجرى تجاربه الجديدة ليوجه قوة الحياة فى مجرى جديد . أما ان كان السلطان كله للدولة فانه يستحيل عليها ان تجرى التجارب المثمرة الفعالة ، وان تجدد وتقلب الاوضاع وتثور على العرف القائم بما فيه صلاح الانسانية ؛ نقول انه يستحيل على الدولة ان تقوم بهذا لانها تمثل مجموعة الشعب ، والشعب فى مجموعه اوساط لانوابغ ، انما النبوغ ينحصر فى افراد قلائل .. الدولة بعبارة اخرى تمثل النوع كله ، أما الفرد فيمثل نفسه وشخصيته ، وسنة الطبيعة هى ان يخرج الفرد ـ ان شاء واستطاع ـ على حياة النوع وينادى بأسلوب جديد فى الحياة ، فاما ان يفشل فى اسلوبه هذا فيفنى واما ان يوفق فيفرض نفسه على الاجيال المقبلة جميعا ، بما وصل اليه من النتائج العقلية والمادية والخلقية ... ان النوع من وجهة النظر البيولوجية عبارة عن مجموعة تجارب الافراد الناجحين فى العصور المتتابعة على مر الدهور . والدولة العالمية فى يوتوبيا الحديثة ستبنى شئونها الاقتصادية على تجارب الافراد كذلك ، فالافراد يقومون بما يشاءون من مشروعات ، فان أصابهم الفشل لم يأبه لهم أحد وان ظفروا بالتوفيق اضافوا تجربتهم الجديدة الى جسم الدولة العالمية الخالد

الدولة العالمية المثلى هى مالكة الارض ، وهى التى تنيب عنها حكومات محلية وهيئات بلدية فى ادارة اجزاء الارض . فتقبض كل هيئة من هذه الهيئات الفرعية على كل مصادر النشاط فى يدها لتستثمرها بطريق مباشر او غير مباشر ، وبذلك يكون المجهود البشرى وثمرات الطبيعة من فحم وكهرباء وريح وماء خاضعا كله

لسلطانها المطلق ، تصرفه حيث شاءت وتوزعه بين الافراد كما تريد مهتدية بالصالح العام . وعندئذ فقط تستطيع الدولة أن تكفل انتظام والامن والعدل ، وان تهيىء اصلح الطرق . وارخص وسائل المواصلات وأسرعها . وأن توزع العمل وتراقب المنتجات الطبيعية ، وان تضمن جيلا جديدا صحيح الاجساد . وعندئذ فقط تستطيع الدولة أن تفرض على الناس ماتريد هي من مقاييس لقيم الاشياء ، وان تعاون الابحاث العلمية وتكافىء المشروعات النافعة التى قد تتعرض للخسارة لو تركت وشانها ، وأن تاخذ بأيدى النقاد والمؤلفين والناشرين اذا مست بهم الحاجة ، وان تجمع المعلومات المفيدة وتوزعها بين ابناء الشعب .. . ان الخدمات التى ستؤديها الدولة لافرادها ستكون كماء الغيث تمتصه الشمس من البحر ليعود دافقا على سلاسل الجبال الى البحر مرة اخرى ، فالشمس هنا هى الدولة والبحر هو الشعب والقطرات التى تمتصها هى ماتجبيه من مختلف الضرائب ، تجبيه لتعود فتصبه فى البحر ماء عذبا نميرا فى جداول وانهار تعمل عمل الافراد من اصحاب المشروعات ، فالدولة لم تقم الا من اجل الافراد ، والقانون لم يسن الا ليضمن الحريات ، والعالم كله لم ينشأ الا للتجربة التى تمهد سبيل الرقى والتقدم .. تلك هى الآراء الرئيسية التى تقوم عليها قوائم اليوتوبيا الحديثة .

ولكن اذا كانت الدولة مصدر الوان النشاط كلها ، فكيف تكون ملكية الافراد ؟ ان الرجل بغير ملك يتصرف فيه كما يشاء هو رجل سلبت حريته ، ومدى مايملك الانسان يحدد مدى مايستمتع به من الحرية ، فلو نزعت من الفرد ما يملكه ، لو نزعت منه طعامه ومأواه ، ماوسعه الا أن يضرب فى أرجاء الارض باحثا عن بديل لما سلب منه ، لان الانسان يظل عبدا

لحاجاته حتى يظفر بالاملاك التى تشبع فيه تلك الحاجات . اما ان كان الانسان صاحب ملك ولو ضئيل ، اضحى على الفور حرا فى بعض النواحى ، فتراه يستغنى عن العمل بعض الوقت ليستمتع بفراغه كما يريد ، ويجرب الوانا مختلفة من العمل حتى يقع على ما يصادف فى نفسه هوى ولذة . وان زادت الاملاك فيغلب أن يفكر المالك على الفور فى الرحلة الى أطراف الارض ، ويبنى لنفسه الدور هنا وهناك ، وينشىء الحدائق ويؤسس الاعمال ويجرى التجارب . . ان ظروف الحياة فى العالم الارضى تتيح لثروات الافراد زيادة سريعة تنتهى بالضغط على حريات الآخرين ، فان اردنا للمشكلة علاجا ، كان من حيث الكم لا الكيف ، فنبقى على الملكية ولكن نقيدها بقيود ، وليست المسالة مسالة كيف كما يذهب بعض المفكرين ، اعنى ان المشكلة لا تتطلب قلبا للاوضاع راسا على عقب .

وهذا بعينه ما اخذت به « يوتوبيا » فى بناء نظامها ، فقد ضربت حدا اقصى للحرية الفردية فلكل فرد مطلق الحرية فى ملكه الذى حصله بطرق مشروعة ، اعنى ماحصله بعمله ومهارته وبعد نظره وجرائه ، وكل ماعمله الفرد يصبح من حقه ان يحتفظ به أو يبيعه او يبادل به شيئا آخر . . وبذلك تصبح مشكلة : ماذا يملك الفرد ، هى : ماذا يجوز للفرد ان يشترى فى الدولة المثلى ؟

اما الاشياء التى تتعلق بشخصية الفرد فله كل الحق فيها وفى ان يورثها من يشاء . . . واما الاملاك الاخرى كالمال مثلا فالدولة تساهم فيه بنصيب الاسد ، لان الدولة هى المكلفة برعاية الابناء بعد موت عائلهم وهى التى ستعنى بالرجل فى سن الشيخوخة ، ولذا ستسعى الدولة ما امكنها السعى الى تشجيع الافراد بكل وسيلة ممكنة لينفقوا اموالهم الزائدة عن

حاجتهم فى اعمال اقتصادية ، اوفى ان يضيفوا الى الحياة جمالا وسعادة واملا وثروة

واريد بهذا ان الملكية نوعان ملكية شخصية يكون الفرد حرا فيها ، وملكية غير شخصية تكادتكون من حق الدولة كلها : فالفكر الحديث ينزع نزوعا قويا نحو تحريم ملكية الافراد الارض وسائر الاشياء الطبيعية ، وللدائرى دولة اليوتوبيا الحديثة تجعل هذه الاشياء ملكا للدولة وحدها ، قد تؤجرها للافراد مدة لاينبغى ان تطول تحوطا لما عساه يحدث فى الايام المقبلة

وما دمنا بصدد الملكية فانا نسارع الى القول بان ملكية الآباء لابنائهم وزوجاتهم ستنتقل الى يد الدولة ، وسنرجىء الحديث فى هذا حتى نبحث موضوع الزواج

اننا اذا استثنينا جانبا ضئيلا جدا من العمل كان يؤدى فيما مضى بقوة الماء والريح ، وجانبا آخر كانت تقوم به الماشية فى حرث الارض ونقل المتاع ، اقول اذا استثنينا هذه المعونة الضئيلة وجدنا ان عضلات الرجال وحدها هى التى كانت تحفظ كيان الحياة فى الدول القديمة ، فقد كان الناس فيما سلف يديرون دنياهم بأيديهم ، ولذا كان العمل الجسمانى شرطا ضروريا للوجود الاجتماعى . فلما ادرك الانسان مرحلة من الرقى يحرق فيها الفحم ويستخرج من جوف الارض صلبها وحديدها ، تطورت المعرفة البشرية وتغيرت الظروف . فكثير جدا من نشاط الحياة اليوم نعتمد فيه على غير سواعد الانسان ، اذ نستمده من الفحم والوقود السائل والمفرقعات والهواء والماء وكل الدلائل تشير الى زيادة مطردة فى النشاط الآلى ، والى تحرر الانسان من ضرورة العمل الجسمانى . ان الآلة ستغزو الحياة الى اقصى الحدود ، ولم تطرأ هذه الفكرة على عقول البشر الا فى الثلاثة القرون الاخيرة . فلم يكن افلاطون - مثلا - يفكر قط فى ان الآلات

سيكون لها الشأن الاعظم فى التنظيم الاجتماعى ، لانه لم ير فى بيئته مايوحى اليه بذلك . انه لم يحلم بامكان قيام دولة لاتعتمد فى قوتها على سواعد البشر وعضلاتهم ولكنه رآى حوله من الآراء السياسية والخلقية مقدارا كبيرا غزيرا اللهم عقله واستحث خياله فيما يمكن ان يكون ، بل لاتزال آراؤه السياسية والخلقية من الخصوبة والغزارة بحيث تكفى لاشباع الخيال فى عصرنا هذا ، اما فيما يمس الممكنات المادية فكلامه يميت الخيال ولا يستبشره .. . بل ان بيكون نفسه فى « اطلنطس الجديدة » لم يتنبأ بكثير مما يمكن ان يطرأ على الحياة من تطور مادى .

واغلب ظنى أن غذاء عقولنا نقيض غذاء العقل اليونانى القديم ، فانسان اليوم يكاد لايدهش من اى نظام آلى او اقتصادى مهما بلغت غرابته عن المألوف ، ولكنه يدهش كل الدهش حين يسمع بالنظم الاجتماعية العجيبة التى قامت فى عصر اليونان .. اننا لنعجب للنظام الاجتماعى فى اسبرطه بقدر ما كان يعجب سقراط اذا وصفت له سيارة او طيارة

من اجل هذا بدأ افلاطون تقليدا تبعه فيه كتاب المدائن الفاضلة ، وهو أن تكون الدولة المثلى بغير آلات ولكن بشائر الحياة الآلية الجديدة اخذت تظهر عند بيكون فى « اطلنطس الجديدة » ثم زادت واشتدت فى مؤلفى القرن التاسع عشر .. اما قبل ذلك فقد كان المفروض ان يكون بين الناس طبقة يناط بها العمل اليدوى الثقيل ، وهم من سماهم ارسطو بطبقة العبيد حين قسم المجتمع الى طبقاته ، اخذ افلاطون فى جمهوريته بهذا الرأى ، وكاد يقرر ذلك بيكون ، ولم يسع « مور » الا أن يفكر فى طبقة عبيد أيضا تؤدى للمواطنين الاحرار العمل الشاق . ثم ذاعت دعوة اخرى هى ان يقوم الناس جميعا بالعمل اليدوى ، على شرط أن ينقلب الى لذة واستمتاع بعد أن كان



وأن يسود العالم باجناسه المختلفة حب وسلام

شقاء وعذابا .. ولكنا لا نرى ان وجهة الانسانية تشير الى شيء كهذا

لست ارى ان الانسان بطبعه يميل الى العمل ، ولا أعتقد أن العمل نعمة من نعم الحياة كمايذهب اصحاب هذا الرأى . بل ان اصحاب هذا المذهب انفسهم ليحجمون عن تصوير الجنة وحياة الراحة والخلود مملوءة بالعمل .. فلا يكون العمل محببا الى النفس متفقا مع الهوى الا ان كان مرانا عقليا او جسديا اوحى به الخيال او املته طبيعة البدن ،وليس هذا فى حقيقة الامر من العمل فى شيء ، وهو أدنى الى اللعب والسلوى ، فالانتاج الفنى حين يصدر فيه الفنان عن دافع نفسى وحرية شخصية ، لا حين يجهد نفسه ليسر الآخرين ،لايصح ان يطلق عليه اسم العمل ، فما ابعد ان تجنى البطاطس من حديقتك لتزجى الفراغ فى متعة لذيذة ، وبين أن تجنيهـا من الحقل لتقيم اود الحياة . ان جوهر العمل هو الاضطرار والارغام ، ووجوب تركيز الانتباه فى العمل الذى تؤديه ، جوهره انه يقضى على حرية الانسان لا انه يتعب أو لايتعب، وها نحن أولاء نرى ظروف الحياة آخذة فى التغير بفضل العلم الطبيعى ،ولن يكون الانسان وحده مصدر النشاط واداة العمل ، اذ ستقوم بالعمل آلات صماء ، وبذلك تنمحى الفكرة العتيقة البالية التى تحتم وجود طبقة عاملة بين طبقات المجتمع

تلك هى رسالة علم الطبيعة فى الحياة . ولكن وااسفاه ! ان العلم خادم امين لو وجد سيدا صالحا يوجهه ويمسك بزمامه ! ولكن هذا الخادم الكفء لايرى اليوم وراءه الا سيدا لم يصب من التربية الا قدرا ضئيلا لا يمكنه من الارتفاع الى مستوى خادمه !!
ان العلم يهيىء للناس كثيرا من موارد الثروة وطرائق الحياة الطيبة السعيدة ، ولكن الناس ابلد من ان يستفيدوا بمايقدمه

العلم .. . اما فى اليوتوبيا الحديثة فالامر على خلاف ذلك ، الحياة كلها هنالك قائمة على العلم المادى ، وقد انمحت ضرورة قيام الناس انفسهم بالعمل الشاق ، وبذلك زال آخر سبب يبرر استعباد الافراد او الطبقات ، ويجيز ان يعلو فرد فى المجتمع على فرد آخر

انه ليكفيك ان ترى الفرقة التى نزلت بها فى أرض يوتوبيا لتعلم كيف قضى فى تنظيم المجتمع على ما يسمى بالطبقة العاملة . فانت تضغط على زر هنا او زر هناك لتظفر بكل ما تريد من نظافة وغسل وتهوية واضاءة

اما قبح الحياة مع الآلات فحديث خرافة لا يسيغه العقل . ان كل شىء فى ارض يوتوبيا جميل جذاب ، لان القبح دليل النقص ، واهل يوتوبيا قد اتقنوا كل شىء صنعا . ان الآلة القبيحة معناها ان صانعها لم يبلغ حدا بعيدا من الرقى فى صناعته ، وهو كلما أمعن فى اصلاح فنه وتكرار عمله دنا ما يعمله من الجمال المنشود . ان الحياة الآلية على ارضنا قبيحة لاننا نعيش فى مجتمع قبيح ، مجتمع يقدم على السرقة والنهب والخداع والشك . وانه لسوء طالع للآلات أن تقوم فى هذا الوسط المرذول وليس هو بالخطأ الذى تسأل عنه ... اننا لو استمعنا الى من ينادون بالعودة الى السذاجة الطبيعية ، واخذنا نحطم المصانع والآلات ، ورجعنا الى الصناعات المنزلية والعمل اليدوى ورعى الغنم ، لظلت لنا سرعة اليوم ، ولا نضيف الى حياتنا الا قذارة وتعبا وفسادا ومرضا ، أريد أن فوضانا العقلية والخلقية ستنعكس فى اى لون من الحياة اصطنعناه ، ولا اصلاح الا بتنظيم هذه الفوضى

وقد ظفر اهل يوتوبيا من ذلك التنظيم العقلى والخلقى بقسط موفور . فمهندس مركبات الترام مثلا فنان بارع مثقف ،

يحاول أن يبلغ بعمله ذروة البساطة والجمال ، كما يحاول الكاتب المجيد او الرسام القدير ان يفعل فى آيته الفنية التى يكون بصدد اخراجها . وان الطبيعة كلها لتوحى لمن أراد أن يستمع لصوتها بالجمال والبساطة ، تراهما فى رشاقة النبات ودقة الحيوان

لنعد الى الطبيعة نستلهمها الوحى ، فننشر بين الناس لواء الحرية خافقا كما تملى الطبيعة فى بساطتها ، وننظر الى الانسان كثمرة انتجتها الطبيعة فلا نكبله بكل هذه القيود القانونية التى يرسف فيها كلما أراد الحركة . ان صوت الطبيعة يصيح بنا ألا نجعل كل هذه الفوارق بين الانسان والانسان ، فما هكذا ارادت بأبنائها . والطبيعة لاتعزف المرض ، ولكن الناس احتموا منها فى البيوت والملابس والعقاقير ، وانى لاوثر أن يموت الانسان موتا طبيعيا على أن يلفظ انفاسه بين أكداس القوارير ...

لا امل فى الاصلاح اذا لم يكن للعالم كله غرض واحد يقصد اليه ويسعى لتحقيقه ، فتظهر للانسانية ارادة واحدة تبطش بكل هذه الانقسامات التافهة التى ولدتها الانانية الممقوتة ... ان ارض يوتوبيا لاتسير فى حياتها ، كما نفعل على هذه الارض ، بالمصادفات والفوضى ، بل تنظم لنفسها مجهودا منسقا وخطة مدبرة ، ترعاها حكومة رشيدة ونظام اقتصادى متزن .. اما هذا العالم الفاسد فالناس فيه يموتون فقرا وجوعا . ان الوف الالوف تسلم ارواحها وهى تتضور من الفاقة والالم . ان اهل هذه الارض لايدخرون جهدا فى تحويل دنياهم الى جحيم يقاسون فى سعيره العذاب الاليم . ها انتذا ترى الاطفال يولدون على صورة قذرة بشعة ، وينشأون فى غلظة وقسوة وجهل وعماء . وام الكوارث هى الحرب التى تلقى الفزع فى النفوس وتسيل الدماء انهارا ...

كاد اصحاب المدائن الفاضلة القدامى ان ينكروا عنصر المنافسة بين الناس ، اما نحن فى هذه اليوتوبيا ، فلا يسعنا الا الاعتراف بهذا المبدأ ، الذى هو من الحياة بمثابة اللب والصميم . نعم ، قد نحاول ان ننظم هذه الفوضى الضاربة باطنابها ، وان نبث روحا انسانية فى الصراع القائم بين الافراد ، ولكن لابد مع ذلك ان نبقى على التنافس الذى يميز بين القادرين والعاجزين

كان معظم المدائن الفاضلة القديمة يحتم ان تكون الارض السعيدة المثلى بغير تاريخ . وان يكون مواطنوها جميعا ذوى جمال ورشاقة وقوة فى العقل والخلق . ولكنا اعلنا منذ البداية اننا سنحصر انفسنا فى حدود الممكن المعقول ، فندخل الاصلاح على الحالة الراهنة بقدر المستطاع . . فماذا نحن فاعلون فى الشائهين والبله والمجانين والسكارى والاشرار والقساة والحمقى والاغبياء ؟ ان النوع البشرى لامندوحة له عن التصرف فى هؤلاء بما يضمن له السلامة والسعادة ، كما ينبغى ان يرفع ذوى الكفاءة الممتازة حتى يصعد بهم الى اسمى الذرا .

اما الطبيعة فسبيلها الى ذلك ان تقتل الضعيف وتسحق العاجز ، واداتها التى تتخذها للقتل والسحق هى ابناؤها الاقوياء الاذكياء ! ولكن الانسان حيوان لا طبيعى ، فهو ابن الطبيعة الثائر عليها ، وهو يزداد على مر الدهور ثورة على امه التى انشأته . فسيأخذ الانسان نفسه فى اليوتوبيا الحديثة بتغيير القانون القديم الذى لم يكن يسمح للعاجزين الفاشلين ان يعانوا ويتخبطوا ، خشية ان يزداد نسلهم ، اما القانون الجديد فيحرص على الا يزداد نسل العاجزين خشية ان يعانوا ما يعانونه فى الحياة من آلام .

ان موارد العالم المادية اذا نظمت تنظيما حكيما كانت كافية لسد حاجات الاحياء جميعا . واذا كان من الممكن ان

يعيش كل كائن بشرى عيشة مرضية فى بدنه وعقله ، فلماذا لايفعل ؟ ! ! حتم علينا اذن ان نوفر الهناءة لكل فرد ، على ان نبقى على التنافس بين الافراد لنميز الطيب من الخبيث ، فنرفع القادرين ونسمح لهم بالسيادة والتكاثر . واعتقد ان حاجة الانسان الى المنافسة والنجاح والفشل لاتقل ضرورة عن حاجته فى حياته الى زمان ومكان !

ولكننا مع ذلك نستطيع أن نحصر حدود الفشل والاخفاق . ففى العالم الارضى قد بلغ التنافس حد القتال الدنىء على الطعام واللباس والماوى . فان ظننت أن قليلين هم الذين يموتون جوعا وعريا ، فقد غاب عنك ان الطبقات الدنيا تلبس وتاكل وتسكن فى صورة زرية تعافها نفس الكريم ، وذلك معناه انهم يموتون عريا وجوعا موتا تدريجيا مجزءا ... اما فى اليوتوبيا الحديثة فلن ترى شيئا كهذا ، لان اساسا من اهم اسسها هو ان يكون لكل انسان حق اللبس والاكل والسكن على نحو معقول ... لن تدخر اليوتوبيا وسعا فى هدم المنازل غير الصالحة واعادة بنائها ، وستعنى بالمرضى من ابنائها بكل ماوسعها . وستضع الدولة حدا أدنى للحياة ، وتخلق عملا للمتعطلين دون أن تشترط ان يكون عملا يدر عليها الربح ، ولا تسمح بالزواج الالمن يتقاضى حدا معلوما من الاجر . وللكهول العاجزين اعانات مالية وبيوت يأوون اليها

اما المجانين والبله والسكارى والمرضى بأمراض مستعصية فيعزلون عن جسم المجتمع عزلا ، كما يعزل عنه اولئك الذين اعتدوا على حرية الناس كالمزورين واللصوص على ان الدولة ستسعى جهدها لاصلاح هؤلاء وعلاجهم ان كانوا فى صدر شبابهم ، فتؤسس لهم مدارس وجامعات تقوم على اسس ملائمة لعقولهم وشذوذهم .

ولن تتردد اليوتوبيا الحديثةفى قتــل الاطفــال ذوى العاهات والمرضى بأمراض فاتكة خبيثة ،لان الدولة متعمد نفسهامسئولة عن سلامه المجتمع ... وعندي ان الجريمةوالمرض والبؤس هى مقياس فشل الدولة فى واجبهاالان مجموع الجرائم هو جريمة المجتمع ، ومجموع امراضه هوعلته ... على أن اليوتوبيــا لن تلجأ الى عقوبة الاعــدام فى غير سن الطفولة

لن يكون لواحــد من اهــل يوتوبيا حق الحياة بلا عمــل . الا ان توفر لديه مال يتيح لهذلك فاذا لم يواصل الافراد مجهودهم فلا صحة ولا ســعادة ؛ وليس القعود عن العمل فى مصــلحة المجتمع ولا هو مجلبة لســعادةالكسلان نفسه ... اضف الى ذلك أن الدولة لن تسمح باموالهاالا لمن يخدم الجماعة من افرادها فان خلت يدا فرد من المال كان ذلك عــلامة واضحة على أنه متعطل لايعمل شيئا .. وبناءعلى ذلك لايجــوز لشــخص ان يتسول ولا لمحســن أن يحسن احسانا مضطربا لمن يتفــق ان يلاقيهم فى الطريق .

فان لم يجد الرجل مايعملــهقدم نفســه لموظف مسئول يعلم كيف يجد لهذا الرجل عمــلافى بلد قريب او بعيد ، ذلك لان شئون العمل ف اليوتوبيا عليهارقابة دقيقة كما يراقب علمــاء الفلك ظواهر الاجرام السماوية،فترسم المصــورات فى كل يوم لتبين اين يوجد العمل لمن يخلومنه ... عــلى ان التربيــة فى اليوتوبياستعنى بتدريب الناشئين عــلى مهن مختلفــة كيلا ينحصر الفرد فى مهنة بعينها طوال عمره فان لم يجد العامل المهنة التى يؤثرها اختار غيرها مما تعلم فى صباه ..

فان نشــأت بطالة رغم هــذا كله ، كان عــلى الدولة ان تلجا الى تصرف اخر ... فاختــلال التوازن بين العمل والعمال يرجع الى احد سببين : اما الى زيادةالســكان زيادة اكبر من زيادة

المشروعات الاقتصادية ،واما الى نقص المشروعات الاقتصادية بسبب انتهاء بعضها او بسبب اختراع الات توفر العمل

فاما زيادة السكان فعلاجها فى قوانين الزواج التى من شانها ضبط عدد السكان بقدر الحاجة، واما نقص المشروعات الاقتصادية فعلاجه تقليل ساعات العمل اوتشجيع قيام مشروعات جديدة، او ان تنشىء الدولة اعمالا كبرى لاصلاح الطرق والمنازل وما اليها لتستوعب العمال المتعطلين

واذا كسب العامل الحد الادنى من الاجور فله الحق فى الفراغ . نعم هو حر فى ذلك مادام قد كسب لنفسه ماينفق منه على عيشه والتأمين على صحته وادخر شيئا لكهولته وشيئا لتنشىء ابنائه وان العالم ليستفيد من هذه الفئه التى يتيح لها مالها شيئا من الفراغ ، فمن الفراغ تتولد التجارب العلمية وتنشأ الفلسفة والفنون

ننتقل الان الى الامومة ومشكلة الزواج . فاليوتوبيا الحديثة لايكفيها ان تكون سليمة الافراد مستمتعة بحياة سعيدة ،بل لابد أن ترسم لنفسها طريق التقدم والنهوض من حسن الى أحسن . اما اذا ترك الناس حبل التناسل على الغارب ، فيزدادون اشباعا للغريزة المتحللة من القيود ، ويتدهورون بغير شك من سيىء الى اسوأ كما قال « مالتس » فابلغ شرور الحياة هى زيادة السكان

وطريقة الطبيعة فى علاج هذه المشكلة هى ان تسمح للسكان بالزيادة حتى يبلغوا حدا اقصى وعندئذ يأخذ القوى فى الفتك بالضعيف . وقد اصطنعت الانسانية طوال عصور التاريخ هذه الوسيلة الطبيعية فى علاج زيادة السكان . فعدد من كان يصرعهم الجوع والمرض كان يتناسب تناسبا دقيقا مع زيادة المواليد عن الحد المطلوب . تلك كانت الحال التى أملتها الطبيعة .

فلا الطبيعة حورتها ولا الانسان أصلح فيهما ، بحيث يتخلص من هذا الثمن الغالي الذى كان يدفعه مقابل رقيه وتقدمه

ومجرد تحديد النسل لا يجدى فى الامر شيئا . فبعض الامم القديمة - كالصين فى العصور السالفة - كان يلجأ اليه بوأد البنات الصغار ، فكان ذلك يفلح بعض الشيء فى حصر الوان الشقاء ، ولكنه كان يستتبع أيضا ركود الحياة وجمودها ، لان التقدم يعتمد قبل كل شيء على التنافس وانتخاب الاصلح .

اننا نستطيع ان نمحو الالم والشقاء والموت بغير أن نحول دون التطور الجسمانى والعقلى فى مجراه الطبيعى ، وذلك بمنع ولادة اولئك الذين يولدون للعجز والفشل والشقاء لو ترك حبل التناسل على الغارب . فان كانت الطبيعة التى « تلطخها الدماء نابا ومخلبا » تحفظ مستوى النوع وترقى به بقتل الضعيف او تعذيبه ، فان المثل الاعلى للمدنية العلمية هو أن تمنع اولئك الضعفاء من الخروج الى الحياة ، فلا يكون ثمة قتل ولا تعذيب . ان التنازع على البقاء بين الحيوان وبين الشعوب الهمجية ، معناه بؤس الضعيف وموته حتى لا ينسل ويتكاثر ، أما الدولة المتمدينة ففى مقدورها ان تهيىء العيش الرضى لكل كائن حى على شرط أن تحرم التناسل على الضعيف .

ان الدولة الحديثة تتجه الى تحمل التبعة فى تعليم الاطفال وتغذيتهم وتوفير اسباب السعادة لهم ، واذن فمن حقها ان تقرر اى الاطفال يفتح أمامهم طريق الحياة .

وكان من راى افلاطون ان تتولى الدولة تربية الاطفال بعد انتزاعهم من حجور امهاتهم ساعة الميلاد ، وكان ذلك معقولا من رجل لم يعلم من البيولوجيا الا قليلا ، ولكنه لم يعد معقولا بعد « دارون » ، ومع ذلك فلا يزال كثير من الكاتبين فى علم الاجتماع يأخذون بهذا الرأى ، ويعدونه رأيا عبقريا صالحا ، فيظهر أن

هؤلاء الكتاب لم يدركوا مدى التغير الذى طرا على معنى لفظتى « نوع » و « فرد » فى الخمسين السنة الاخيرة ، فهم لايعلمون ان حدود النوع قد فنيت وامحت ،ولم يعد سوى أفراد يتميز كل فرد عن غيره ويكون وحدة مستقلة . انهم لايزالون يظنون أن الافراد نسخ ناقصة لنوع مثالى افلاطونى كامل ، وان الغرض من التربية هو تقريب الافراد من ذلك المثل الكامل ، كان البيولوجيا الحديثة لم تعلمهم ماللافراد من شخصيات متميز بعضها عن بعض

فالفردية هى محور التفكير عند المفكر الحديث ، ووهم باطل ان يقال ان للدولة حق اختيار الافراد لتحسين النوع ، ويكفى هدما لهذا الراى ان نذكر ان مستقبل الانسانية مرهون بالنوابغ الافذاذ مع ان الدولة فى مجموعها تمقت النبوغ وتمثل اوساط الناس . . فلنترك الافراد احرارا يقررون شخصياتهم واول سبيل الى ذلك هو ان نفسح أمام عواطفهم مجال النمو والازدهار ، ولعل اسمى وسيلة للتعبير عن عواطف الفرد هى اختياره لشريكة حياته . فالفرد — لا الدولة — هو الذى يقرر من يكون زوجه الذى يكمل حياته

ولكن ان لم يكن من حق الدولة أن تفرض الزواج على الافراد فرضا ملزما ، فمن واجبها بغير شك أن تفرض القيود والحدود على تصرفات الافراد فى ذلك ، من حق الدولة أن تلزم من يريد ان يضيف اطفالا الى المجتمع بأن تكون له القدرة على تربيتهم وتنشئتهم ، وأن يكون له حد أدنى من الكفاءة والصحة ، وان يجاوز سنا معينة ، وان يكون خلوا من الامراض الموروثة وتعود الاجرام

ان اليوتوبيا تكاد لاتعرف الموت فى الاطفال الصغار ، لان ابلغ مآسى الحياة ان يولد الطفل ليموت ، مع أنه جاء ليحيا . اما

فى هذا العالم الارضى فان خمس الاطفال على الاقل يموتون صغارا ، وعلة ذلك نقص فى الطب والتمريض ، وضعف فى نظمنا الاقتصادية ، وما يسودنا من فقر ومرض . ان تسعة وتسعين فى كل مائة ممن يولدون يجب وجوبا محتوما ان يعيشوا حتى الشيخوخة

ان المدائن الفاضلة القديمة كلها قد اخطأت فى كثرة القوانين التى ارتأت ان تفرض على شئون الزواج ، اما نحن فمذهبنا الا تتدخل الدولة فى ذلك الا بالحد الادنى ، لان القانون ، فى راينا ، واجبه ان يتيح اكثر مايمكن من الحرية والابتكار

ولست ارى ان تظل المرأة ـ كما هى دون الرجل فى حياتها الاقتصادية ، اذ لو بقيت كذلك لكان عبثا ان نطالب لها بالمساواة مع الرجل .. . نعم ان طبيعة المراة التى تخالف بها الرجل هى فى غير صالحها من الناحية الاقتصادية : فعدم قدرتها على المجهود الشاق ، وتعرضها للامراض الخفيفة آنا بعد آن ، وضعفها فى الابتكار ، وعجزها عن التنظيم بالنسبة الى الرجل ، كل هذا يقف فى سبيل مساواتها الاقتصادية بالرجل ، ولكن المراة قد استغلت هذا الضعف الطبيعى على نحو آخر ، وذلك انها اتخذته ذريعة لتشاطر الرجل مكاسبه

على ان اليوتوبيا الحديثة قد غيرت من الموقف الاقتصادى بعض الشىء ، فاعترفت بان الامومة خدمة تؤديها المراة للدولة ، وان من واجب الدولة بناء على ذلك ان تؤجرها اجورا تتناسب مع اتقان المراة لوظيفتها تلك . اذ لا فرق بين أن يقوم فرد من الامة بتنشىء رجال الدولة وبين ان يقوم فرد آخر بالحراسة او القضاء او الحكم او الوعظ الدينى او القاء المحاضرات فى الجامعات ... ولذا ستفرض الدولة الحديثة للام أجرا تضيفه الى اجر زوجها ، على ان يزاد ذلك الراتب بزيادة الابناء ، وذلك

على شرط ان يكون ابناؤها فى صحة عقلية وجسمانية مما يدل على قيامها بواجبها ، على نحو مرض، وكلما ازداد الاطفال صحة وقوة زاد اجر الامومة لان الامومة الصالحة فى اليوتوبيا الحديثة مهنة كسائر المهن ، يعلو أجرها كلما زاد اتقانها

ولو اصطنعنا ذلك فى ارضنا الانمحى عناء الارامل ، وشقاء الاوانس اللاتى يحول فقرهن دون الزواج ، وتعس الزوجات اللاتى يضبطن النسل لفقر أزواجهن . ولضمنت الدولة ان ينشأ الاطفال نشأة صالحة بغض النظر عن حالة آبائهم المالية ، فلن يؤثر فى حسن تربيتهم ان يموت الزوج او ان يسوء سلوكه او حظه

اضف الى ذلك ان الدولة اذا حرمت على الوالدين استغلال ابنائهم ، وأراحت الكهول من اعتمادهم على اولادهم ، قل الدافع الى النسل الكثير ، واكتفى الآباء بابن او اثنين لاشباع غريزة الابوة وكفى ، ونتيجة ذلك الا يزيد السكان زيادة فاحشة ولكن ذلك كله مرهون بشيء واحد ، وهو ان تلقى تبعة الاطفال على المجتمع

والخلاصة ان اليوتوبيا الحديثة تعد الحمل والولادة والتربية خدمة للدولة لا لفرد معين . . وذلك هو الاساس الجديد الذى يقوم عليه تنظيم الامومة

ولما كان الزواج ركنا هاما من اركان الدولة ، لانه وسيلة النسل ، ولانه سبيل الحياة المنزلية الهادئة ، لم تترك اليوتوبيا امره فوضى ، فاشترطت له شروطا لايجوز زواج بغيرها ، فدخل الزوج يجب الا يقل عن حد مفروض ، وسن الزوجين لايجوز ان تقل عن واحد وعشرين للمراة وست وعشرين للرجل ، وغير ذلك مما يضمن الصحة والقوة للجيل الناشيء الجديد وأما علاقة المراة بالرجل ففيها رايان : راى ذهب اليه افلاطون ومن ورائه اوروبا بأسرها ، وهو ان تكون المراة مساوية للرجل فى

كل شيء ، ويتبع ذلك ان تساويه فى أعماله من حكم وقتال وتعليم وغير ذلك . ورأى اخذبه ارسطو ومن ورائه الدول الشرقيـة ، وهو ان المراة احط من الرجل ، ولها عمل خاص بها يختلف عن عمل الرجل ، فلها الدار وشئونها وله اعمال الحياة الخارجية .. ونحن نفضل لليوتوبيا الحديثـة الراى الاول

وأهـل اليوتوبيـا الحديثـة ينقسمون اربع طبقـات : فئـة المبتكرين وفئة العاديين الممتازين وثالثـة من الاغبياء ورابعة ممن تدهورت فيهم الاخلاق

اما المبتكرون فاول ما يميزهم خروجهم على المألوف المعـروف اذ هم يشقون لانفسهم طريقا فى الحياة ينشئونها انشـاء ، ومن هؤلاء أصحاب الفـن المبـدعون ورجال العلم الخالقون

واما العـاديون الممتازون فهم لا يشـذون عن المألوف ولـكنهم بارعون فى التصرف فيه ، انهم لا يبتكرون شيئا ولكنهم يحسنون استغلال الموجود ، وابرز ما يميز هؤلاء نشاطهم وذكاؤهم ، ومن امثلتهم القاضى القـدير والمدير الكفء والممثل البارع والسياسى الداهيـة ومن الى هـؤلاء ... ومن هذه الطبقة العادية الممتازة تتالف اركان المجتمـع فى العالم الارضى . اما اهـــل يوتوبيـــا فعمادهم الطبقة الاولى

واما ثالثة الطوائف فالاغبياء الذين اصيبوا بضـعف الخيـال واضـطراب الفـكر ، وهـؤلاء عاجـزون مقلدون بحاجـة الى الادارة والارشاد .

واما ذوو الاخـلاق الوضيعة فهم اخلاط من الطبقات الثلاث التى ذكرناها ، ويميزهم انصراف همهم الى مصالحهـم الخاصـة دون صالح المجتمع

وبديهى ان ارفع طبقات المجتمع شانا هم المبتكرون المنشـئون ، بل يستحيل ان يكون مجتمـع بغيرهم .. لهـذا ترى الدولة

هنالك لاتدخر وسعا فى استخراج هؤلاء من بين القوم ، بأن تتيح الفرصة للافراد جميعا على السواء ، الرجال منهم والنساء ، ليظهر نبوغ النابغين

وقد يجمل بى أن اسرد سردا سريعا بعض ما تحرمه الدولة فى اليوتوبيا الحديثة . فهم يحرمون اكل اللحم . لانهم يمقتون ان يقيموا المذابح وان يمضغوا فى افواههم الثيران والخنازير .. ويمنعون الربا لئلا يثرى رجل على حساب آخر .. ولا مراهنة هنالك ولا مقامرة ، ولا يجيزون العاب المنافسة ، ولا يفسرون الطهر بالعزوبة اذ لا تناقض عندهم بين الزواج وطهارة النفس ، ويحذرون من الاسراف فى الشهوات والانغماس فى الترف ، على الا يحرم احد نفسه مما يشبع فيه الشهوة اشباعا متزنا معقولا ، فكل انسان له ان يجلس الى مائدة اللذائذ فيأكل منها ما طاب له على ان يغادرها فى غير امتلاء وتخمة ... واللبس الفاخر مرذول عند السيدات ، لانه نكسة الى الوحشية ، ويؤثرون ان يلبس الناس جميعا ثيابا بعينها

واما الدين فى اليوتوبيا الحديثة فاهم ما يذكر عنه انه عندهم محصور فى الفرد ، اى انه صلة بين الانسان وربه ، وينعكس الوضع لو جعلناه علاقة بين الانسان والانسان ، ومن البلاهة ان يوسط الانسان قسيسا ليكون حلقة اتصال بين نفسه وبين الله ، الا اذا جاز لنا أن نقول ان القسيس لازم لوصل قلوب المحبين

واهل اليوتوبيا يخصصون سبعة ايام من كل عام يعتزل فيها كل انسان عن كل انسان .. فيضرب فى أرجاء الارض لا يحمل كتابا ولا سلاحا ، وينام على فراش غليظ تحت قبة السماء ، والغاية من هذا بث الشجاعة فى النفوس .. وهم فى هذه الرحلات يحبون ان يرتادوا الصحراوات الافريقية والاسيوية ،

والغابات المنعزلة وسهول المناطق المتجمدة والجزر الموحشة ، وبهذا يستطيع الانسان أن يخلى بين نفسه وبين الطبيعة

ونريد أن نختم الحديث برأينا فى تقسيم العالم الى أجناس . فنفس الانسان بطبيعتها تتذبذب بين طرفين : رغبة فى التفرد ، وخوف من العزلة . فكل فرد يريد أن يحقق لنفسه شخصية واضحة متميزة عن سائر الافراد ، ولكنه فى الوقت نفسه ينفر من انفصاله عن الناس ، بل هو على نقيض ذلك يحب أن ينغمس فى جماعة يكون عضوا فيها . . شأن الفرد فى ذلك كشأنه فى اختيار ثيابه ، فهو يميل الى الاخذ «بالمودة» السائدة ليكون مع الناس على نمط واحد ، ولكنه يحب أن يشترى ثيابه « جاهزة » ويفضل أن « يفصل » الثوب على جسمه دون سائر الاجسام .

والتوسع فى ذلك الميل الطبيعى معناه ان الانسان يحب وطنه الخاص ، ولكنه يميل الى ان يكون ذلك الوطن جزءا من العالم

غير ان رقى الوسائل المادية وتقدم طرق المواصلات فى القرن الاخير ، قد حطم الفواصل بين الاوطان ، ومكن الناس من نشر الثقافة العالمية بينهم ، وذلك ما بشرت به المسيحية والاسلام فى العصور الوسطى .. وكانت اولى نتائج ذلك أن اتسعت المثل العليا فى السياسة ، واخذ الناس يبحثون عن اسس سياسية جديدة غير الوطنية ، كاتحاد الجنس أو وحدة اللغة ، واخيرا ولت الانسانية وجهها شطر الوحدة العالمية

ولكن حدثت نكسة فى القرن التاسع عشر ، وعودة الى القول بوحدة الجنس ، وكان ذلك بسبب الانقلاب العلمى الذى شهده ذلك القرن . فما كادت تذيع نظرية داروين فى التطور ، حتى فسرها الناس بضرورة ان يكون فى العالم طائفة مختلفة من الاجناس المتنازعة . وكان الداعين الى ذلك قد نسوا - حين يزهو

باجناسهم على سائر اجناس البشر - ان المدنية ما استقرت فى طائفة دون طائفة ، بل اخذت تتنقل على مر الدهور من هذه الفئة الى تلك . فترى الشعوب التى تتنسم ذروة السياسة فى هذا العصر تتوهم انها من جنس ممتاز ، وتظن أن المصريين واليونان والصينيين والهنود أخس منهم منزلة ، مع ان هذه كانت تسيطر فى العهود الماضية بمثل ماتسيطر به الشعوب القوية اليوم

اما الراى الصواب فهو ان حديث الاجناس حديث خرافة . وان الناس اخلاط من هذا وذاك ... وافرض جدلا ان الصينى مختلف عن الانجليزى - مثلا - فى جسمه وفى نفسيته ، فهل يؤدى هذا الى استحالة المساواة بينهما فى دولة عالمية ؟ .. . ان الناس افراد ، وليسوا اجناسا ، ففرد يمتاز عن فرد . ولا يجوز القول ان جنسا يمتاز عن جنس .. فان رأيت الناس على خلاف فاعلم انه اختلاف ظاهرى فى اللغة واللون والحركات وما الى ذلك ، مما لايتعذر معه الاندماج والتوحيد . . . كنت اتحدث - ونحن فى كوكب اليوتوبيا - الى صديقى بذلك ، فدهش وقال : ولكن هل تحب ان تزوج ابنتك من صينى او زنجى ؟ فقلت له : انك تزدرى هؤلاء اليوم لقذارتهم وجهلهم ، ولكن هلا وسعت من خيالك قليلا لتفهم الفرق بين الصفات المكسوبة والطبائع الموهوبة ... اذا رأيت بعض الانجليز يدمنون فى شراب الخمر ، تجيز لنفسك ان تعمم هذا الحكم على الشعب الانجليزى باسره ؟ وان لم تجز لنفسك هذا الوثب فى الحكم هنا ، فلماذا تستحله فى اهل الصين والزنوج ، فتظنهم جميعا من صنف احط ؟

ان تآلف الثقافات والاجناس فى عالم واحد هو أمل الانسانية المنشود ، الذى لابد ان تتوفر على تحقيقه الجهود .. ان الامم تستطيع ان تلقى السلاح وتقف الحروب ، لو ارادت !

لنحطم فواصل اللغة لتسود بين الناس لغة واحدة . ولنقوض هنالك من حوائل اقتصادية تباعد بين الامم .. . ليكن فى العالم قانون واحد ، وادب واحد... وامل واحد !

وماذا يمنع الانسانية ان تأخذ بهذا الفردوس الارضى ؟ ا بلادة الذهن التى لاتبررها الاسباب !

مع الوفود السودانية فى رحلتهم بالحوامدية
زيارتهم لشركتى السكر والتقطير واعجابهم بالمصانع
تقليد جديد فى مؤسساتنا الاقتصادية

هذا تقليد جديد فى الزيارات الرسمية للضيوف الذين يفدون الى مصر بين آونة واخرى ، تقليد يتفق مع العهد الحاضر ، بروحه ، ووثبته .

واذا كانت زيارة ضيوف مصر لمؤسساتنا الاقتصادية والصناعية الكبرى شيئا جديرا بالتسجيل ، فهى بالنسبة لاخواننا اهل السودان الكرام أجدر بالتسجيل واحق بالاشادة .

ان مصر اليوم قد تبدلت فى كل شىء فى حياتها العامة والخاصة ، فى طريقة تفكيرها ، فى أسس نهضتها ، وقد صارت الصناعة ذات اهمية بالغة فى حركتنا المباركة .

وان اخواننا أهل الجنوب عندما يزورون مؤسسات مصرية كبرى كالتى شاهدوها بالحوامدية اول امس ، انما يفعلون شيئا واجبا عليهم ، فمن حقهم ان يقفوا بانفسهم على ما حققته مصر ، أو ما حققه شمال الوادى من نهضة .

لقد قضى الضيوف وفى صحبتهم وزير الدولة السيد فتحى رضوان ولفيف من الصحفيين وقتا ليس بالقصير فى زيارة شركتى السكر والتقطير المصرية بالحوامدية وطافوا بأرجاء شركتين من اكبر شركاتنا الاقتصادية ، أما شركة السكر ، فكانت دولة أجنبية داخل الدولة ثم تمصرت على يد احمد عبود ، واما شركة التقطير فقد اسست فى اشهر معدودة وتعتبر من أحدث شركات التقطير واكبرها فى العالم أجمع .

ولعل قليلين يعرفون سياسة احمد عبود فى شركاته ، فهو يؤسس الشركات التى تعتمد فى انتاجها على مواد خام موجودة فى مصر ، حتى لا يخشى عليها فى زمن الحرب ، فشركة السكر تعتمد على القصب ، وشركة التقطير تعتمد على المولاس (العسل الاسود الصناعى) أحد منتجات عملية التكرير ، وشركة الاسمدة تعتمد على الجير الموجود فى جبل عتاقة بالسويس وشركة الورق سوف تعتمد ان شاء الله على مصاصة القصب وهكذا .. وهى سياسة تقى مصر وصناعاتها والساهمين ايضا شر الازمات .

وفى هذا الحيز البسيط ، يرى القراء مجموعة من الصور لحضرات الضيوف

السودانيين الناءزيارتهم للحوامدية والتى لاقوا فيها جميع ضروب التكريم من ادارة الشركتين وموظفيهما وعمالهما واهالى الحوامدية انفسهم وقد رحب الجميع باخوان لهم ، اخوان من الجنوب جاءوا لزيارة مصر ، فى عهد جديد سعيد عهد الاخوة والوحدة ، عهد الاتحاد ، النظام .. العمل

اقلعت الباخرة « كريم » من مرساها بالقرب من كوبرى عباس فى الساعة العاشرة من الصباح ، تقل وفود الاحزاب السودانية برفقة الاستاذ فتحى رضوان وزير الدولة ولفيف من الصحفيين قاصدة الى الحوامدية ، فوصلت اليها بعد ساعتين

زيارة المصانع



الضيوف السودانيون ووزير الدولة بين جموع عمال وموظفى شركتى السكر والتقطير بالحوامدية اثناء زيارتهم للمصانع .

ووصلت الباخرة فى الظهر الى الحوامدية وكان فى انتظارها كبار موظفى مصانع السكر والكحول فاستقبلوا الضيوف بالترحيب

اعتذار عبود عن مرافقتهم

وقد اعتذر السيد احمد عبود عن مرافقة ضيوفه الى مصانع السكر والتقطير نظرا لانه كان يشرف بنفسه منذ الصباح على الاستعداد لمباراة كرة القدم التى جرت فى ذلك اليوم بالنادى الاهلى والتى حضرها الرئيس اللواء اركان حرب

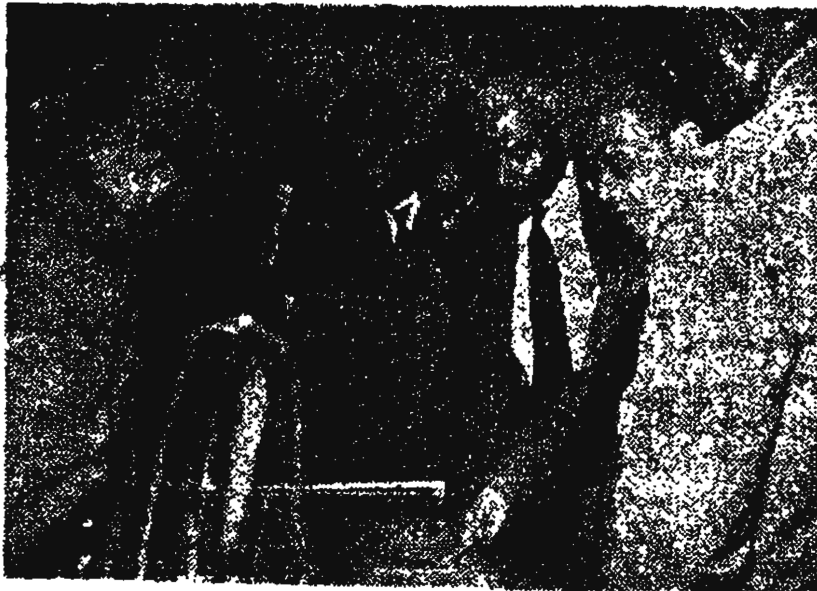
محمد نجيب ، وقد اناب سيادة احمدعبود مديرى شركتى السكر والتقطير وكبار الموظفين فى استقبال الضيوف الكرام والحفاوة بهم والطواف معهم بارجاء اقسام الشركتين المختلفة

تعاهدنا على الوحدة

وقال المشرفون انهم يقترحون تقسيم المدعوين الى قسمين قسم يزور مصانع السكر وقسم اخر يزور مصانع الكحول ثم يتبادلون الزيارة ، ورد وزير الدولة بقوله : اننا لانقبل القسمة ولا نرضى بها ، وقد تعاهدنا على الوحدة والاخاء ، فنزل المشرفون على رغبة الوزير ، واستجابوا لعامل الوحدة هذه لمبدأ المدعوون يزورون دفعة واحدة اقسام مصانع السكر والكحول

ساعتان

وقد طاف المدعوون بجميع ارجاء المصانع ، واستغرقت زيارتهم لمصانع السكر والكحول نحواً من ساعتين ، شاهدوا فيها عمليات تكرير السكر والاجهزة الحديثة الضخمة التى تزودها المصانع والجهود الجبارة التى تبذل



الضيوف فى شركة السكر وهم يشاهدون احدى عمليات التكرير

لاستقرار هذه الصناعة وانمائها لمقابلة زيادة الاستهلاك المحلى المتزايد على مادة السكر ، وكذلك شاهدوا عمليات ضغط الهواء واستخراج المولاس اللازم لصناعة الكحول وماكينات توليد الكهرباء وغيرها من اقسام الشركة الهامة

مصانع التقطير

وبعد ذلك توجه المدعوون الى مصانع التقطير الممتدة بجانب مصانع السكر والمقامة على مساحة ١٢ فدانا ، وقد طافوا باقسام المصانع المختلفة وشاهدوا عمليات تحويل المولاس « العسل الاسود الصناعى » الى كحول والادوار التى تمر بها هذه العمليات ، وشاهدوا عمليات التخمير وتوليد البكتريا واستخراج ثانى



الضيوف وهم يستمعون لشرح احد المهندسين المصريين بشركة التقطير المصرية انه يشرح الادوار التى يمر بها المولاس حتى يصبح كحولا او كولونيا

اكسيد الكربون اللازم لصناعة المياه الغازية فى مصر ، وكذلك عمليات التقطير نفسها ثم تحويل الكحول الى كحول وتودوطافوا بعد ذلك بمصانع الخل والمستردة وشاهدوا عمليات تعبئة الزجاجات

الكولونيا والروائح

كما شاهد المدعوون مصنع الكولونيا والروائح العطرية والبريانتين التى سوف تنتجها المصانع قريبا جدا والتى سوف تغمر السوق المحلية حاملة اسم «قسمة» وكذلك شاهدوا المخازن الكبرى المعدة لتخزين الكحول النقى وكحول الوقود



وبعد الزيارة تناول الضيوف طعام الغداء بنادى موظفى شركة السكر ، وهو ناد فخم به ملاعب وحدائق وحمام سباحة ووسائل الترفيه والرياضة لأبناء الموظفين والموظفين وعائلاتهم ، وبالنادى فرق رياضية متعددة - كرة قدم ، كرة سلة ، تنس .. الخ ، وهناك ناد آخر للعمال لا يقل استعدادا عن نادى الموظفين .

والتى تشرف عليها السلطات الحكومية ،وتقوم الشركة بتزويد البلاد بما تحتاجه من الكحول النقى وكحول الوقود ، وتصدر جزءا كبيرا من الكحول الى بلاد العملة الصعبة ، وقد حصلت الشركة على مناقصات كثيرة فى دول امريكا بحيث اصبح للشركة المصرية فى الخارج مركز ممتاز حقا .

جهود موفقة

وقد اثنى المدعوون على الجهود الكبيرة التى بذلت لاقامة هذه المصانع الحديثة والتى تساعد على دعم الاقتصاد القومى مما تتيح لمصر مكانة صناعية مرموقة

تناول الغداء

وبعد أن طاف المدعوون طوافهم هذا وسط ترحيب العمال والموظفين وحماسهم تناولوا طعام الغداء بنادى موظفى المصانع

العودة

وفى الساعة الثالثة استقل المدعوون والاستاذ فتحى رضوان وزير الدولة السيارات الى القاهرة مودعين بمثل ما استقبلوا به من الحفاوة والترحيب من موظفى الشركة وعمالها واداريها ،وقد عادوا بالسيارات لشهود مباراة كرة القدم بين فريقى النادى الاهلى والتى حضرها اللواء محمد نجيب

تهنئة

وقد قابلت وفود الاحزاب السودانية السيد احمد عبود فى النادى الاهلى وشكروه على مالاقوه من تكريم وهنأوه على جهوده فى تصنيع البلاد وتوفيقه فى خدمة بلاده عن طريق الميدان الاقتصادى وقد طلب احد اعضاء الوفد من السيد احمد عبود ألا يحرم السودان من السكر المصرى تحقيقا لعوامل الوحدة التى تحدث عنها وزير الدولة فأجاب السيد عبود بانه مستعد دائما وفى اى وقت لاجابة طلبهم ، وانه مستعد لتلبية اى طلب للحكومة فى هذا الشأن

أما الصحفيون فقد فضلوا العودة بالباخرة فوصلت بهم الى القاهرة فى منتصف الساعة الخامسة

كتب للجميع

كتب قيمة بقروش زهيدة

صاحبة الامتياز : شركة التوزيع المصرية شركة مساهمة مصرية للنشر وتوزيع الصحف

عضو مجلس الادارة المنتدب : السيد ابو النجا

رئيس التحرير المسئول : فائق الجوهرى

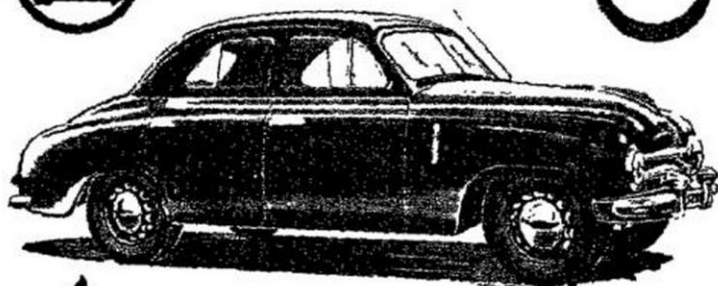
مدير الادارة : أمين عدلى

الاشتراكات ٧٠ قرشاً فى السنة فى القطر المصرى والسودان
٩٠ فى الاقطار العربية الداخلة فى اتحاد البريد ١٢٠ فى الاقطار الاخرى

الادارة ٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة . تليفون ٢٧٢٠٠







سُوچينا

وكلاء **سكودا - تاترا** فى مصر

يقدمون بكل فخر

فى صالات العرض التابعة لهم

سيّارات

سكودا ١٢٠٠

الجديدة من جميع الوجوه

٥٧ - الاسكندرية : ٢٦ شارع سيدى

...سعد وزكريا مصطفى» - الزقازيق :

...تياوى وشركاه بالاسماعيلية وميت غمر

إهداء 2005

أ.د/ محمد عثمان نجاتي

القاهرة



« طبع بمطابع جريدة المصرى »